المضمون التاريخي العالمي لأدب الواقعية النقدية

• تأليف : س. بيتروف • ترجمة : شوكت يوسف

لعب فن الواقعية في الحقيقة دورا فائــق الأهمية في التطــور الروحي للانسانية وفي مسيرة الفن العالمي • حدد هذا الدور الهام في المقام الاول المضمون التاريخي ـ العالمي الذي اضطلع به أدب الواقعية النقدية • فقد جسد الكتاب الواقعيون من مختلف المراتب في مجموعة اللوحات والصور التي أبدعوهـا خصائص وسمات عصرهم والشخصية القومية لشعوبهم وعبروا عن مشاعر الناس وأفكارهم ، عن رغباتهم وآمالهم وطموحاتهم وجسدوا مثلهم الانسانية والديموقراطية • استطاع الادب العالمي ، وبقوى الواقعية قبل كل شيء ، كما قال بلزاك ، ان « يحلل كل الشخصيات ، يتمثل الاخلاق والاعراف المختلفة ، يطــوف الكرة الارضية كلها ويستشعر هموم ومواجد الناس » •

نفذ الفن الواقعي بعمق ، لم يقدر عليه فن آخر غيره ، الى أعمق أسرار الواقع الانساني • استوعب الكتاب الواقعيون من مختلف الجوانب حيــاة الانسان والمجتمع ، التاريخ الماضي ، عالم الطبيعة وجعلوا مادة الفن كل شيء يهم الناس معتبرين انه حيث الحياة فهناك الشعر •

جسد الفن الواقعي كل لحظات الحياة الانسانية : ولادة الطفل ، عالم الطفولة واهتمامات الاطفال ، الفتوة واندفاعاتها ، نشاط الانسان الراشد ـ تطلعاته ، حبه ، حياته العامة والخاصة ، مرحلة النضج والانتاج ثم مرحلة الذبول ودراما الموت .

أعطت الواقعية تحليلا للمجتمع المعاصر لها من أسفله الى أعلاه ، وعلى كل الصعد والمستويات الاجتماعية ـ الثقافية مجسدا في نماذج انسانية ممتلئة بالحياة . ومن الصعوبة أن نعثر على مجال أو مسألة لم يتطرق اليهما الكتاب الواقعيون في أعمالهم . أشارف . لينين الى ان الكاتب الواقعي الروسي العظيم ليف تولستوي قد طرح القضايا العظيمة للديمقراطية والاشتراكية .

وانعكست في أعمال الادب الواقعي العالمي التجربة الخلاّقة للاجيال المتعاقبة ـ لملايين من « الناس مروا على هذه الارض » والغنى اللامحدود لعالم مشاعرهم وأفكارهم ، حتى ليشعر المرء كأن فن الواقعية قد أعاد خلق العالم من جديد . لكن مع انطباع موح بواقعية كبيرة أعظم من الواقع ذاته . فعالم الواقعية الفني ليس انعكاسا ميتا كصورة مرآة ، بل واقعا مصاغا من جديد بشكل خلاق تجسد لوحاته وصوره ونماذجه « الحقيقة الكاملة للحياة » والانحرافات عنها بسبب أخطاء معينة أو محدودية فكرية ـ تاريخية راجعة الى عصر الكاتب وكامنة في فكره .

ارجع ف. لينين أهمية الكاتب الواقعي الروسي العظيم ليف تولستوي في التطور الفني للانسانية الى انه قد عكس في أعماله عصرا كبيرا بكامله من

التطور التاريخي للشعب الروسي • على هذا النحو من هذا المنطلق يجدر ان ننظر الى المغزى أو المضمون التاريخي ـ العالمي لأدب الواقعية النقدية بالكامل

شكلت الواقعية النقدية عصرا جديدا في تطور الادب العالمي لانها عكست، في تصويرها الصادق على ضوء المثل الانسانية الديمقراطية ، عصرا كاملا مهما من التاريخ العالمي ـ عصر الثورات البورجوازية وصعود الرأسمالية ثم بداية انحطاطها ونضال الطبقة العاملة من أجل انتصار الاشتراكية • وهذا ماحـدد المضمون الحياتي الجديد لأدب الواقعية النقدية الذي لاقى تجسيدا فنيا ، الى هذا الحد أوذاك ، في ابداعات معظم كتاب تلك المرحلة •

جسد الكتاب الواقعيون في تصويرهم المجتمع المعاصر لهم انحطاط ثم مصرع طبقة النبلاء والاقطاعيين المزاحة عن مسرح التاريخ بقوى البورجوازية النامية وعملية تأقلم بعض فئاتها مع الاوضاع والظروف المستجدة • عكست الآداب الاوروبية كلها تقريبا ، وسلاحها الفن الواقعي ، في فترات زمنية مختلفة وفي أشكال تاريخية قومية خاصة ، عملية التحول من المجتمع الاقطاعي الى البورجوازي كأحد القوانين الاساسية للتطور الاجتماعي في القرن التاسع عشر • ألقى الضوء على هذه العملية بشكل واسع بلزاك الذي صور ، رغم تعاطفه مـع الارستقراطية النبيلة ، الحتمية التاريخية لسـقوطها وهلاكها • وانعكست هذه العملية كذلك ، بمختلف جوانبها وبشكل غني ، في مؤلفات الكتاب الواقعيين الروس من بوشكين الى بونين والكسي تولستوي •

عكست الاعمال العديدة للأدب الواقعي في أوروبا وأمريكا في القرن

التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حياة المجتمع البورجوازي بكل تناقضاته ـ الاشكال المختلفة للتقدم البورجوازي ، الظلم والاضطهاد الطبقي ، الطبقات « العليا » و « الدنيا » للنظام البورجوازي ، سيكولوجيا وأخلاق الانسان ـ المالك وحقيقة الناس البسطاء ، الاعمال التجارية الحرة والمعارك الطبقية الاولى بين الكادحين وسادة العالم الرأسمالي . أبدع الكتاب الواقعيون مجموعةغنية جدا من نماذج المجتمع البورجوازي من مختلف المراتب والمستويات بمن فيهم المثقفون ذوو الميول الفردية البورجوازية . كذلك وجد المحيط البورجوازي، الاسرة البورجوازية ، التقاليد ، الاعراف والقيم التي نمت على أرض المجتمع البورجوازي ـ وجد كل ذلك تجسيدا فنيا في النماذج واللوحات التي قدمها أدب الواقعية النقدية . وهنا برزت منذ البدايـة ، في المضمون الفكري ـ التاريخي لهذا الادب ، سمات جوهرية ذات أهمية تاريخية ـ عالمية .

فخلال تطوره في القرن التاسع عشر « نسف الادب الواقعي التقدمي ، بتصويره الصادق للعلاقات الواقعية ، الاوهام السائدة حول طبيعة هـذه العلاقات ، خلخل جذور تفاؤل العالم البورجوازي وبث الشكوك حول مايقال عن رسوخ أسس الاوضاع القائمة وعدم تغيرها » ، وكانت تلك مأثرةالواقعية، رسالتها التاريخية التي لعب تحقيقها دورا عظيما في تطور الوعي الطليعي وفي تطور حركة التحرر على طريق الاشتراكية . وتحول الفن الواقعي الاصيل ، الناشىء في معمعان كفاح البورجوازية ضد الاقطاع الى رفض العالم الـذي أقامته هذه البورجوازية نفسها .

فضح الادب بالتدريج وفي كل مجالات الحياة الوجه الاجتماعي والاخلاقي القبيـــح للطبقات المسيطرة في المجتمع البورجوازي الرأسمالي • رأى كارل ماركس في تصوير الانانية الاجتماعية للبورجوازي ، محدودية اهتماماته وفقر عالمه الداخلي ، مأثرة الواقعية الانكليزية • كتب بهذا الصدد مايلي : « كشف الكتاب الانكليز للعالم في أعمال روائية خالدة حقائق سياسية واجتماعية أكثر من جميع السياسيين والقادة الاجتماعيين والوعاظ الاخلاقيين مأخوذين معا وأعطوا وصفاً تقويمياً لجميع طبقات البورجوازية بدءا من المرابي والرأسمالي الكبير وانتهاء بالتاجر الصغير والموظف والسكرتير في مكتب المحامي • وصفهم ديكنز ، تيكيري ، السيدة بروتني كأناس متعجرفين ، منافقين ، مستغلين وجهلة رسم بلزاك بشكل تهكمي صور المرابي العتيق غوبسك ، الممول الجشـــع نيوسينجن والبورجوازي الريفي المستبد السيد غراندي •

وأوضحت الواقعية بشكل مقنع كيف أصبح المال القوة المحركة للحياة ، مقياس كل القيم ، معيار النجاح والفشل ، ميزان الوضع الاجتماعي والسلطة الفعلية وكيف غدا كل شيء مادة بيع وشـــراء ، تهدمت الاسرة ، وتشوهت علاقات الحب والصداقة • وبرز على المسرح التاريخي البطل الرئيسي للبورجوازية : الانسان ــ العدواني من مختلف المراتب والالوان ــ الجشع ، الوصولي ، الاناني اليائس العاطل عن العمل ، البطل النورستاني ذو العضلات الرخـــوة المترهلة ، المرأة التي تحولت الى سلعة ، أداة متعة وصار الجنس عندها المضمون والهدف الرئيسي للحياة ، البطل النرجسي المحب لذاته فقط ، البطل المستعمر الذي يمتص دم الزنوج والملاويين والصينيين والهنود خدمة للبورجوازيـــة •

سخرت الارادة والعقل والطاقة والموهبة ، سخر كل ذلك من أجل الانتصار في المعارك ضد الآخرين لاحتلال موقع تحت الشمس على حساب الآخرين .

بعد ثورة ١٨٤٨ غدا أكثر وضوحا للكتاب الواقعيين الطليعيين في الغرب أن البورجوازية قد أصبحت طبقة رجعية طفيلية وعدوة للتقدم الاجتماعي ، في روايات زولا لاتثير شخصية البورجوازي القرف والسخرية فحسب بل ويتنبأ الكاتب بهلاك الحضارة البورجوازية (باريس) . وفي روايته « الصديق اللطيف » عرى موباسان الاخلاق التجارية لنواب البرلمان والصحافة البورجوازية وفي « التاريخ المعاصر » قال اناتول فرانس « واضح ان البورجوازية قد تعفنت تماما ، نعم وهذا ماتشهد عليه قضية دريفوس » . يرسم برنارد شو في مسرحياته في تلك الفترة لوحة هجاء للمجتمع البورجوازي ، كما وتصدر في عام ١٩٠٦ رواية غالسورسي « المالك » .

وحتى في المانيا « اليونكريه » ، لم تلعب البورجوازية في نهاية القرن التاسع عشر نفس الدور الذي لعبته في انكلترا وفرنسا ، لكنها (أي البورجوازية) أثارت النقمة والغضب لدى الكتاب التقدميين . في آب ١٨٩١ أرسل الكاتب الواقعي الالماني فاتتاني رسالة الى ابنته يقول فيها : « اني أكره كل ماهو بورجوازي بنفس الاندفاع كما لو كنت اجتماعيا ـ ديمقراطيا لدودا » . و ألف رواية « السيدة ايني ترايبل » المعادية للبورجوازية ، حيث قدم نموذج المرأة التاجرة الجشعة التي تغطي جشعها الى الذهب بالنفاق والحديث المراوغ عن الطيبة وفعل الخير ، ثم رواية « ايفي بريست » التي تحدث فيها عن المصير التراجيدي للمرأة في المجتمع البرجوازي ـ الارستقراطي .

تلت ذلك رواية توماس مان الشهيرة التي قدمت نموذج البورجوازي بودنبرغ وجسدت في مغزاها الاجتماعي ـ التاريخي المصير النموذجي للمجتمع البورجوازي في أوروبا الغربية • جاء في كتاب ادماني وسلمانوف حول توماس مان مايلي : « في شخصية وصورة ومصير بودنبرغ عرفت البورجوازية الاوروبية نفسها عند عتبة العصر الجديد عندما لم يكن قد بقي للحرب العالمية الاولى ، لبداية الثورة العالمية ولنهاية العصر البورجوازي سوى خمسة عشر عاما على وجه التقريب » •

صور الكتاب الواقعيون في أوروبا الغربية في بداية القرن العشرين بصدق وعمق كافيين الطابع البورجوازي ـ الاناني النفعي لنمط الحياة ، التقسيم الرأسمالي للعمل المهلك للانسان ، الفئات المرابية الطفيلية ، حدود اهتمامات الانسان ـ المالك والمصير التعيس للانسان البسيط •

وكما في الادب الاوروبي الغربي قوي في الادب الروسي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتجاه فضح وتعرية البورجوازية والرأسمالية • أدبر عهد الارستقراطية النبيلة وغدا مصيرها الآن مثيرا للرثاء أو للسخرية والهجاء في الغالب • لكن « سيد » الحياة الروسية الجديد ـ التاجر،الصناعي رجل الاعمال لايوحي بالآمال ولايثير التعاطف • ومن هذا المنطلق صورت نماذج التجار والصناعيين في مسرحيات اوستروفسكي وروايات مامين سيبرياك « الملايين الوافده » ، « العش الجبلي » وفي قصة كوبرين « مولوخ » • لايثير التعاطف حتى لوباخين بطل تشيخوف ولايسر القارىء ان كان من نصيبه بستان كرز رائع • ولكن تشيخوف فهم جيدا ان في البخار والكهرباء حبا للانسان

أكثر من التقشف والزهد التولستوي ، لذا حيا التقدم الصناعي في روسيا ورحب به معتبرا البورجوازية قوة تقدمية الى حد معلوم • لكنه أوضح أيضا في قصصه « مملكة النساء » وغيرها أن التسابق من أجل الغنى لن يعطي أي معنى أخلاقي للحياة •

أوضح الادب الروسي ان البورجوازية الوطنية لاتتسم بالقوة ولاالثقافة ولا الطموح ، بل انها على العكس مذهلة في حقارتها الفاضحة ، في جبنهاوجهلها وبشكل خاص في طفيليتها • وتتجلى مأثرة الكتاب الواقعيين في انهم انتبهوا وأشاروا الى ضعف البورجوازية الروسية التي أصابها العجز في الوقت الذي كان يجري في البلاد نهوض الرأسمالية • وأوضحت الواقعية أسباب هـذه الظاهرة : ـ وهي طابع الجشع الوحشي والجبان لتطور الرأسماليةوالبورجوازية في روسيا • فمنذ أواسط القرن التاسع عشر عكست أعمال كثيرين من الكتاب وقوف الانسان من الوسط الشعبي والمثقف الخارج من صفوف الطبقةالوسطى ضد الارستقراطي والبورجوازي • يوافق انجلس على رأي احدى الصحف الالمانية في أن بطل الرواية المعاصرة هو « الفقير » ـ الطبقة المحتقرة التـي غدت حياتها ومصيرها وأفراحها وآلامها تشكل مضمون الروايات ••• وهذا الاتجاه بين الكتاب الذي تنتمي اليه جورج صاند ، ايجن سيو ، بوز وغيرهم يعتبر ، بدون شك ، راية العصر » وخطوة عظيمة الى الامام على طريق التصاق الادب بالحياة الشعبية •

كثيرا ماجذب الوسط الشعبي اهتمام الكاتب الواقعي التقدمي ذا الميول

الديمقراطية وعثر فيه على نماذج جيدة مثيرة قوت في نفسه الثقة والايمان بالمستقبل • وماكان للواقعية أن تصبح ظاهرة عظيمة في الادب العالمي لوانها عبرت بلا مبالاة أمام صور ولوحات الحياة البائسة الشقية التي تحياها الفئات الشعبية الدنيا وملايين الناس البسطاء • اكتسب موضوع الانسان الصغير ونماذج المذلين المهانين تطورا واسعا فيأدب الواقعية • جسد هذاالادب النموذج الخلقي الرفيع لأفضل الناس من الوسط الشعبي وكشف في المصير التراجيدي الذي أحاق بأفاضل الناس الحقيقة القاسية الصعبة لحياة الطبقات الكادحة في ظل الرأسمالية •

قام الادب الديمقراطي الروسي بخطوة كبيرة ضرورية تاريخيا الى الامام في تصوير الوسط الشعبي ونماذجه وأشكال حياته ، ولم يكشف أي أدب آخر من آداب أوروبا الحياة الشعبية بمثل هذا العمق والاتساع وبكل أشكالها ومظاهرها المختلفة • وهذا يخص بالدرجة الاولى الطبقة الفلاحية ــ واقعها ، عاداتها ، تقاليدها ، قيمها الاخلاقية وعلاقاتها بالطبيعة ــ الامر الذي وضعت بدايته « رحلة من بيتربورغ الى موسكو » لراديشيف ، قصص غريغوريفتش « مذكرات صياد » لتورغنيف • خطا أدب الستينات والسبعينات ــ نيكولاي وفليب اوسبينسكي ، نكراسوف ، ويشيتنيكوف ــ خطوات أكبر الى الامام في الاستيعاب الفني لكل جوانب وظواهر الحياة الشعبية ، وليس للخارق المتميز فيها فقط • تبرز في أشعار كولتسف وفي الادب الروسي بوجه عام في السبعينات صور العمل وتراكم التجارب ، والخبرات الضرورية تاريخيا

من أجل التطور اللاحق للادب المرتبط مباشرة بمصائر ملايين كثيرة من جماهير الكادحين •

لم يكشف الكتاب الديمقراطيون الخصائص الايجابية للوسط الشعبي وقواه الخلاقة وحسب ، بل انتقدوا أيضا الجوانب المتخلفة للوعي الشعبي • اعتبر تشيرنشيفسكي التصوير الواقعي الصادق بدون أصباغ للحيـاة الشعبية في قصص اوسبينسكي « بداية التغيير » في التصوير الفني للشعب • والى جانب تقييمهم الرفيع للجوهر والطابع الشعبي بوجـه عام غالبـا ماكان الكتـاب الديمقراطيون يعربون عن قلقهم وحزنهم بصدد تخلف وعي الشعب وكانوا قساة في نقدهم أحيانا لهذا الفلاح الذي كانت حريته وسعادته غالية علـى قلوبهم •

أشار لينين أكثر من مرة الى ان تطور الرأسمالية أدى الى نهوض الشعور بالشخصية لدى الانسان وفي الوسط الشعبي أيضا • وجسد الادب الواقعي هذا الأمر • فقد عكس الادباء ، خصوصا اوسبينسكي وكورلينكو ، يقظة الشعور بالشخصية في الوسط الفلاحي من خلال نماذج الفلاحين المتمردين الذين أعلنوا بجرأة لمن يضايقهم أن «الحقوق أعطيت للجميع الآن» • وكشفت الواقعية الطابـع المتناقض للتطور الاجتماعي للطبقـة الفلاحيـة في ظروف الرأسمالية • فكثيرا ماخرج من أوساط الفلاحين المتطورين الميسورين الـى حد ما الكولاك ــ « اكلة العالم » الذين صورهم الادب الروسي في السبعينات والثمانينات بشكل رائع • عن مثل هذا الكولاك كتب اوسبينسكي مايلي :

« انه يلتهم جيرانه ، يتلمظ ويلحس لسانه فقط ثم يمسح بيديه فمه القذر » .
أيقظت الرأسمالية الشعور بالشخصية ، لكن عملية اليقظة هذه اتخذت في أحيان كثيرة في الوسط الشعبي اشكالا صاغتها الرأسمالية نفسها : « كل واحد لنفسه واله واحد للجميع » ونذكر في هذا المجال بأخلاقيات الوسط الفلاحي المصورة في مسرحيات ليف تولستوي وفي قصص تشيخوف وبونين .

يشير الادب الغربي الى ظواهر مشابهة في أوروبا الغربية أيضا . كتب الناقد الفرنسي التقدمي بيرغامارا عن موباسان مايلي : « موباسان في أدبنا أحد أوائل من اكتشف تلك الحقيقة الهامة وهي ان الشعب أصبح حامل وحافظ المشاعر والتطلعات الاكثر نبلا وانسانية : العظمة ، الكرامة ، شعور الشرف والحس الوطني الاصيل » . غير أن موباسان نفسه في القصص الفلاحية ، وزلا وليمونيه في رواياتهما يصورون أيضا الاخلاق والعادات والملاقات المفعمة بالجشع والحسد والنفعية والانانية المتفشية في الوسط الفلاحي بفعل تأثير الاوضاع البورجوازية الرأسمالية . يبرز برت ـ هارت وجاك لندن في أعمالهما الشخصيات القوية الخارجة من الوسط الشعبي المفعمة بالرجولة ، لكن كشف أيضا بشكل مقنع الطابع المشوه الممسوخ للتقدم البورجوازي ـ الرأسمالي من خلال المصائر الدرامية للناس البسطاء .

رافق تطور الرأسمالية في مختلف البلدان تحول قسم كبير من الفلاحين والحرفيين الى بروليتاريا وكذلك املاقهم الشديد ـ الامر الذي خلق درامات انسانية كثيرة أشار اليها الادب الواقعي في حينه . وانتشرت في روسيا بشكل

واسع في نهاية القرن التاسع عشر ظاهرة التشرد في أوساط القسم الجائع المحروم من السكان . وصور الادب بشكل رائع نماذج « روسيا المتشردة » وصولا الى الناس الذين صاروا في « الحضيض » كما برزت على صفحاته صور « العصاة » ، أولئك الذين يمثلون في الغالب دور الناس الذين هصرتهم الحياة وفقدوا علاقتهم بأجواء العمل والكدح .

اذا نظرنا الى فن الواقعية بالاجمال وقيمناه من زاوية تصويره الفني لطبقات المجتمع الاقطاعي والبورجوازي ، فيجدر الاعتراف بانه قد ألقيت الاضواء الكاشفة من قبل الواقعية على كل طبقة اجتماعية . كشف الكتاب الواقعيون في القرن التاسع عشر في أعمالهم الطابع والدور الاجتماعي ،الوضع المتغير والاهمية التاريخية كذلك لكل من مجتمع النبلاء والبورجوازية والطبقة الفلاحية ومختلف فئات المثقفين . واذ كانت مأثرة دخول الطبقة العاملة ، كموضوع اجتماعي ترجع الى الرومانتيكية – بايرون ، شيللي، هوغو ، جورج صاند ... – فان الواقعية النقدية بالذات صورت حسب امكاناتها ، وضع الطبقة العاملة في ظل الرأسمالية وأشارت الى تنامي استيائها واحتجاجها ضد هذا الوضع . عالجت الواقعية صراع العمل ورأس المال بشكل عميق في العديد من الأعمال .

في البداية دخل موضوع الطبقة العاملة في الادب الواقعي دونما ارتباط مباشر بقضايا الاشتراكية ، بل كتصوير فني لظاهرة جديدة في الحياة الاجتماعية تستحق كغيرها الاهتمام من جانب فن الواقعية . ففي روايته « لوسيان ليفين »

يصور ستندال اضراب العمال . في قصة « الفتاة ذات العين الذهبية » يتطرق بلزاك الى لوحات الشقاء والعمل المرهق للعامل ويعبر عن استيائه من استغلاله البشع ، دون وازع من ضمير ، من جانب الرأسمالي المالك ، كما ان أحد أبطاله في « لقاءان في عام واحد » عامل طباعة باريسي وتبرز صورة العامل الانكليزي في أعمال ديكنز ويطرح موضوع الطبقة العاملة في الواقعيـة الالمانية فـي في الاربعينات . وهكذا نرى انه ينتظر هذا الموضوع مستقبل عظيم في تطور الادب العالمي .

تعاطف الكتاب الواقعيون العظام في النصف الاول من القرن التاسـع عشر مع الانسان الكادح واشفقوا على شقائه ووضعه البائس ، لكن الطابع الفكري ـ الفني لمعالجة موضوع الطبقة العاملة في أعمال بلزاك ، ديكنز ، فلوبير يكشف قصور فهمهم النضال الثوري للبروليتاري . قال بلزاك على لسان الدكتور بيناس أحد أبطاله القريبين من نفسه في رواية « العيادة الريفية » مايلي : « اعتقد اني قد برهنت بالفعل عن اخلاصي لطبقة الفقراء المحرومين ، وآمل الا أتهم بأني أريد لها الشر . لكن مع تقديري لعرقها وجهدها وانحنائي أمام صبرها وخضوعها أؤكد انها غير قادرة أو مؤهلة للمشاركة في تسـيير شؤون البلاد .

البروليتاريون بتصوري أطفال الشعب الكبار ويجب أن يبقوا تحت الوصاية . كان لمثل هذا التقييم أساس تاريخي معين في الربع الاول من القرن التاسع عشر عندما كانت الطبقة العاملة تنتظر المساعدة من الخارج كما أشار

الى ذلك ذات مرة انجلس • لكن منذ عام ١٨٣٠ صارت « الطبقـة العاملـة والبروليتاريا المناضل الثالث من أجل السيادة » • في ضوء الشروط الجديدة تكشف كلمات بلزاك الاتفة الذكر جوهر ذلك الضلال والخطأ الكبير بخصوص الطبقة العاملة الذي تميز به حتى كبار كتاب الواقعية الكلاسيكية قبل كومونة باريس • عندما كتب انجلس في مقاله عن توماس كارليل ان «عمال انكلترا وفقراءها وحدهم يستحقون الاحترام رغم خشونتهم وهمجيتهم وان انقـاذ البلاد سيكون على أيديهم » أعرب ديكنز كذلك عن احترامه للعمال وأشفق عليهم كفقراء ، لكن كان من الصعب عليه وقتها أن يفهم انه على أيدي هؤلاء الفقراء الخشنين غير المتعلمين ــ يجدر توقع الخلاص مستقبلا من النكبات والمآسي الاجتماعية المحيقة بانكلترا البورجوازية ، في روايته « الازمنـة الصعبة » يسلط ديكنز الضوء بشكل واسع على التناقضات الاجتماعية القائمة بين العمال والبورجوازية ، لكـن لايثـير تعاطفه وتأيـده النضال الطبقي للبروليتاريا فيصور الكاتب العامل الثوري الشارتي Chartist سلكبريدج بشكل سلبي ويمتدح العامل الضعيف المستكين الذي يرفض الكفاح الثوري ويعول على كرم وطيبة ووجدان السادة المالكين • اعترف ديكنز بحق العمال في الاضراب ، لكنه نظر اليهم ، مع ذلك ، « كأطفال ضالين » • رفض الكاتب أيضا العنف الثوري كوسيلة لتغيير المجتمع • وكان مصدر هذه الميول والآراء قصور النزعة الانسانية الخيالية الخائفة دائما من « الهزات السياسية العنيفة الخطرة على العـالم » « بوشكين » ، والمغلفة بالرغبة والأمل في تصـالح قوى

المجتمع المتصارعة . ودان بلزاك وفلوبير كذلك القمع الوحشي للعمال الباريسيين في احداث حزيران ١٨٤٨ ، لكن اعترى كليهما الخوف من ثورة « ذوي البتر » .

لكن ، مع ذلك ، لاقت الحركة الشارتية Chartism صدى ايجابيا مباشرا في مؤلفات بعض الكتاب الواقعيين في أواسط القرن التاسع عشر . استطاعت اليزابيت غاسكل في روايتها « ماري بارتون » تقديم نماذج رائعة للعمال الثوريين كالعامل جون بارتون أحد أفراد الحركة الشارتية ومنظم الجماهير وماري بارتون ذات الشجاعة الآسرة ، لكن غاسكل نفسها كصديقتها الكاتبة الواقعية شارلوت برونتي ـ التي رسمت في روايتها « شارلي » العمال الانكليز ـ تنحرف باتجاه أوهام الاصلاح .

كذلك الادب الروسي لم يستوعب فورا التناقض الاجتماعي الاساسي في روسيا ، في فترة صعود النظام البورجوازي ـ الرأسمالي ، بين الطبقات الرئيسية للمجتمع ـ البروليتاريا والبورجوازية ودور الطبقة العاملة في التطور الاجتماعي . لكن أبدى كل من بيلينسكي ، تشيرنشيفسكي ، دوبروليوبوف وبيساروف اهتمامهم بوضع الطبقة العاملة وتعاطفهم معها . في رواية « ماالعمل ؟ » يلتحق لوبوخوف بالعمل تحت اسم تشارلز بيمونت حيث يستعد لقيادة الدعاية الثورية بين صفوف العمال ، وربط بيساريف مصائر أوروبا بحل

★ ـ الشارتيه ـ Chartism حركة قامت في صفوف المثقفين والمصلحين السياسيين ظهرت عام ١٨٣٧ . كانت تطالب باصلاح وضع الطبقة العاملة اجتماعيا وسياسيا .

قضية العمال ، كما عرف شلغونوف القارىء الروسي على مؤلف انجلس « وضع الطبقة العاملة في انكلترا » •

لاقت قضية الطبقة العاملة تصويراً فنياً في أدب الستينات • ففي عام ١٨٦٤ كتب نيكراسوف قصيدته المشهورة « الخط الحديدي » التي برزت فيها لاول مرة في الشعر الروسي صورة العامل ، وبدأت بعدها عملية الاستيعاب الفني لعالم العامل وليس الفلاح فقط •

يرسم غليب اوسبينسكي في « الدمار » صورة العامل الطليعي مخائيل ايفانوفيتش من تول • ويعكف كاتب ديمقراطي آخر هو فيودور ريشيتنيكوف على كتابه روايتين عن واقع البروليتاريا في الاورال « عمال الجبال » ، « أين الافضل » • واستطاع الكاتب في هذين العملين تجسيد الخصائص والسمات الخاصة بحياة وميول وأمزجة عمال الاورال ـ أنصاف الاقنان ، ينقل ريشينيكوف كذلك البوادر الاولى للاحتجاج والاستياء في الوسط العمالي •

يطور موضوع الطبقة العاملة في الستينات كاتب ديمقراطي آخر هو فيودور اومولوفسكي في روايته « خطوة فخطوة » ـ ١٨٧٠ • كان الطابع المثالي غالبا في تصوير نماذج العمال ، وكان لهذه النماذج جذور في الواقع • لكن « عبرت مظاهرات الستينات عن بعض اليقظة في الوعي » • وفي هذه الفترة بدأت تبرز شريحة غير كثيرة العدد ، لكن ذات تأثير ، من الكوادر البروليتارية المتعلمة في المدن التي تفتش عن الطرق القويمة للتحرر والخلاص من الفقر والظلم والقمع » •

أشار الكتاب الروس الواقعيون ـ الذين يرقبون باهتمام سير الحياة الروسية وينظرون ، بشكل نقدي مع هذا ، الى النظرية الشعبية ـ الى الحقيقة التقدمية الجديدة في الحياة الروسية المتمثلة ببروز العامل الطليعي الواعي على أرضية التطور الصناعي ، المتجاوز للميول والاوهام الفلاحية ـ الشعبية . في نهاية روايته « الارض البكر » يتعرض تورغنيف ، في معرض تصويره الدراما التاريخية للحركة الشعبية ، الى الظواهر الجديدة الخاصة بمرحلة الاصلاح (الغاء نظام القنانة) غير المعروفة الا بشكل محدود في ذلك الزمن بالنسبة للادب الروسي ، مثل المعمل ، شخصية العامل ، العامل التقني الجديد المثقف الذي يدير الآلة .. يصور الكاتب العامل بافل كانسان مستقل ، ذكي ، قوي الارادة ، متماسك خلقيا ، مرتبط بكل الوسط الشعبي واحد قادته . رأى تورغنيف في بافل وأمثاله أبطال المستقبل في الادب الروسي . ونظر ليف تولستوي كذلك باحترام واشفاق عميقين الى العمال . ففي روايته « البعث » يعتري نيخلودوف البطل الذي يعكس بخصوص هذا الموضوع ميول وآراء الكاتب ـ لدى احتكاكه بالناس الكادحين « شعور فرح السائح الذي يفتح عالما جديدا رائعا غير معروف من قبل » .

أدرك الكتاب التقدميون تدريجيا ان عرض حال العامل ، تعليق الآمال على الانتاج الجماعي ـ التعاوني في المشاعة الفلاحية (الشعبيون) والتعويل على المواعظ الاخلاقية ونداءات الضمير (تولستوي) غير كاف ، بل غدا ضروريا التفتيش عن قوى واقعية فعالة للكفاح ضد الرأسمالية . فكر أوسبينسكي ، شيدرين كوروليكوف عميقا في هذا الموضوع ـ بالعمليات الاجتماعية

الاقتصادية التي خلقها تطور الرأسمالية في روسيا • ويبدأ بشكل جديد في أدب الشعبيين بالذات في الثمانينات ، تصوير موضوع البروليتاريا • ففي قصته « من الاعلى الى الاسفل » ـ ١٨٨٦ يحكي الكاتب الشعبي كارونين عن مصير فلاح شاب ـ مخائيل لونين ينزح الى المدينة ، يصبح نجارا ويتوق الى العلم والحياة الواعية • ويشير بليخانوف في معرض مقارنته للفلاح المتخلف ايفان يرملايفيتش الذي تكلم عنه اوسبينسكي في دراسته « الفلاح والعمل الفلاحي » بالعامل مخائيل لونين بطل قصة كارونين الى ان « أحدهما يمثل روسيا الفلاحية قبل بطرس، بينما يمثل الثاني روسيا العمالية الجديدة الناشئة» رأى بليخانوف في قصة كارونين بداية اتجاه جديد مثمر في الادب الروسي خارج عن الاطار التقليدي في طرح الموضوع الفلاحي منذ زمن راديشيف • كان لمثل هذه العملية أيضا مكان في الاداب الاوكرانية (ايفان فرانكو ، كاتسوبينسكي) ، البولونية (رايمونت) ، الالمانية (بولينصا ـ « الفلاح ») وفي الاداب الاوروبية الاخرى • وتلاقي حياة ومصائر الطبقة العاملة صدى واسعا في الاداب الاوروبية عامة حتى في تلك التي لم يلاحظ فيها هذا الموضوع سابقا • فيصور الكاتب الاسباني بيوباروخ في ثلاثيته « النضال من أجل البقاء » نماذج الوسط العمالي • ويبرز موضوع الطبقة العاملة في مسرحيات هنريك ابسن (« أعمدة المجتمع ») ولدى ب• بيرنسون (« الافلاس ») و « فوق طاقاتنا » تبرز أعمال أدبية حول موضوع الطبقة العاملة كذلك في النثر الديمقراطي التشيكي أهمها « في دوار الماء العكر » للكاتب الواقعي انتال ستاشيك • وفي الادب البولوني تصبح حياة الطبقة العاملة موضوع روايات

« الفحامون »غروشينسكي ، « أرض الميعاد » ـ رايمونت « المشردون » ـ جرمونسكي • وصور العمال في جميع هذه الروايات مفعمة بتعاطف مؤلفيها العميق مع الجماهير الكادحة •

لكن هؤلاء الكتاب أيضا لم يعوا الدور التاريخي التحرري للبروليتاريا اذ يلقي الضوء على قضايا حياتها من جانب أخلاقي بشكل أساسي • أبدع ابسن ، كما وعد العمال في كلمة له عام ١٨٨٥ ، نماذج رائعة للمرأة الاصيلة الفاضلة القوية الشخصية • لكنه لم ينجح ، مع الأسف ، في تصوير القوة الاخرى للمجتمع المعاصر له التي تحدث عنها في خطابه ـ الطبقة العاملة التي آمن بقواها الخيرة ، لكنه فهم دورها التاريخي بشكل رئيسي على صعيدالتطور الاخلاقي للمجتمع فقط • لم يتميز بفهم عميق لنضال الطبقة العاملة كذلك الكتّاب الواقعيون الالمان في القرن التاسع عشر ـ فريتاغ، شبلهاغن وحتى فونتاني •

مع تطور الرأسمالية يتفاقم الفقر والاضطهاد والاستغلال ومعه استياء وغضب واحتجاج الطبقة العاملة التي تتوحد وتنتظم من خلال آلية عمليةالانتاج الرأسمالي ذاتها • صورت الواقعية النقدية في العديد من الاعمال بشكل بارز الجانب الاول لحياة البروليتاريا في ظل الرأسمالية ، لكنها لم تهتم الا قليلا بالجانب الثاني • أشار انجلس الى هذه الاحادية في تصوير الطبقة العاملة في رسالته الى غاركنس في نيسان من عام ١٨٨٨ ، اذ ألقت الضوء في قصتها « فتاة المدينة » على جانب المعاناة في حياة البروليتاريا الانكليزية • لقد غدت قوة الواقعية وميزتها الايجابية تتوقف الآن ـ حسب رأي انجلس ـ على فهم

الكاتب الصحيح وتصوره الفني الشامل لنضال الطبقة العاملة عندما يتطرق ، كفنان ، لحياتها .

في نهاية القرن التاسع عشر دخل مجال الواقعية في الرواية وفي الادب المسرحي من باب عريض موضوع النضال الثوري للطبقة العاملة الذي حلم به انجلس . وكانت تلك مأثرة زولا مؤلف رواية «جيرمينال» عام ١٨٨٥ وجيرهارد هاوبتمن مؤلف مسرحية « عمال النسيج » عام ١٨٩٢ . كتب زولا بصدد روايته الآنفة الذكر مايلي : « رواية جيرمينال » هي غضب العمال وقد ألحقت بالمجتمع ضربة عنيفة اهتز منها ، هي بكلمة واحدة صراع العمل ورأس المال وفي ذلك كل مغزى الكتاب ، اذ يتنبأ بالمستقبل ويطرح سؤالاً سيصبح الاهم في القرن العشرين » . وفي تعرضهما لنضال البروليتاريا الثوري سوغ زولا وهاوبتمن استياءها وأيدا احتجاجها ضد الظروف اللاانسانية للحياة . فاذا كان زولا في « المصيدة » قد ألقى الضوء على جانب المعاناة فقط في حياة الطبقة العاملة وأبرز تعاطفه معها من منظور أخلاقي ـ خيري بشكل أساسي ، فانه صور في « جيرمينال » المكتوبة في ظروف انتفاضة عمال النسيج الفرنسيين في أواسط الثمانينات ، النضال الثوري للطبقة العاملة ، كما لم يرجع جانب المعاناة الآن الى عيوب وعلل كامنة في الوسط العمالي ذاته ، بل الى استغلال التروستات الرأسمالية للبروليتاريا . على هذه الارضية تمكن زولا من تصوير نمو الوعي الطبقي للعمال والحتمية الاجتماعية ـ التاريخية لازدياد حدة صراع البروليتاريا الطبقي مع البورجوازية . يصور اوكتاف ميربو كذلك في مسرحية «القساوسة السيئون ـ ١٨٩٧ » الكفاح الثوري للطبقة العاملة . لكن مع ذلك بقي وهم

« الميول الهدامة » للطبقة العاملة في نسف الحضارة البورجوازية وتقويض أسس المجتمع البورجوازي هو المؤثر بشكل رئيسي على زولا وهاوبتمن : جذب « شبح الثورة الاحمر » زولا وأرعبه في نفس الوقت •فيصور كومونة باريس في « الدمار » بشكل غير صحيح ، علما ان بطولة الكوموناريين تلقى احتراما عميقا من جانبه • وفيما بعد يصور رومان رولان في ملحمة « جان كريستوف » مظاهرة العمال الثوريين كانفجار عفوي لاناس حركتهم الغرائز • ورغم ان بطله جان كريستوف يشارك الثائرين على المتاريس انتفاضتهم مأخوذا بصديقه اوليفيه ، لكنه يبقى غريبا عنه ، كما تجلى في مصرع اوليميه نفسه الذي يأخذ طابع الصدفة المفاجئة فصور فهم رومان رولان للثورة •

لم يكن من السهل أبدا أن يفهم حتى المبرزون من كتاب الواقعية النقدية المنطلقون من الافكار والآراء الانسانية الخيالية السامية ان خلاص البشرية وحل القضية الاجتماعية الكبرى سيكون على أيدي هؤلاء الناس الذين يسحقهم العمل المضني والحاجة اليومية المحرومين من العلم والثقافة ــ على أيدي الفحامين الذين صورهم زولا أو عمال التعدين في رواية ليمونيه « المعمل » وعمال النسيج في قصة هاوبتمن • غدا الاشفاق على الكادحين غير كاف • صار ضروريا وعي الاهمية التاريخية ــ العالمية للنضال الثوري للطبقة العاملة على ضوء النظرية الثورية الطليعية ــ الماركسية • كتب بليخانوف موجها كلامه الى المؤلفين الذين يستبدلون الثورية بالخيرية Philant hropism البورجوازية مايلي : « أفضل ممثلي الطبقات العليا الذين لم يستطيعوا الانتقال الى جانب البروليتاريا غير قادرين الا على تمني « ليلة سعيدة » للمحرومين والمظلومين ،

شكرا لكم أيها السادة الطيبون لكن ساعاتكم متأخرة : الليل ينجلي الآن ويبدأ نهار حقيقي ... » . كتب بليخانوف كلماته هذه في فترة غليان ثورة ١٩٠٥ .

وهكذا شمل أدب الواقعية النقدية كل طبقات وشرائح المجتمع المعاصر له من الاسفل الى الاعلى وكشف على ضوء امكاناته التناقض القائم بين مختلف الطبقات في المجتمع البورجوازي ، علاقاتها الحياتية المتبادلة ، وتبعية مصائر بعض الطبقات الأخرى . وان ما أشار ماركس وانجلس اليه بخصوص بلزاك ومعرفته العميقة والشاملة لحياة المجتمع البورجوازي ـ الرأسمالي يمكن سحبه على أدب الواقعية النقدية بالكامل .

شكلت الواقعية الاجتماعية ـ التاريخية للقرن التاسع عشر عصرا جديداً في الادب العالمي لانها أضاءت على نحو جديد الماضي التاريخي للانسانية . في الرواية التاريخية التي تعتبر بحق انتصارا رائعا للواقعية وجدت مختلفة من تاريخ الشعوب والقوميات تصويرا أمينا لها . استطاع والترسكوت ، بلزاك، ستندال بوشكين ، غوغول ، مانسوني ، اراسيك ، شارل دي كوستر ، هنريك سينيكيفيتش ، ايفان فازوف ، بيرس هولداس وكتاب آخرون ، على أساس مباديء الواقعيــة ، أن يكشفوا فنيا الكثير مــن صراعات وتناقضات الماضي الدراماتيكية ، والخصائص القومية للشعوب ويصوروا الاحداث التاريخيــة الهامة ويرسموا عالم وأخلاق العصور المختلفة وصور القادة التاريخيين العظام. وفي تطور النــوع التاريخي في الواقعية كانت ملحمة ليف تولستوي العظيمة « الحرب والسلام » قمة متميزة .

ـ ٢ ـ

صــور الكتاب الواقعيون بوضوح صراع الانسان مــع « الحقارات الرطاســية » لحياة مجتمع الملكيــة . جسدت الواقعيــة كثيراً من الدرامات والتراجيديات المنبثقة على أرضية صراع بين الفرد والمجتمع الــذي تمزقــه التناقضات الطبقية ، وقد قام مذهب الواقعية القديمة ـ حسب كلام ماركس ـ وكل كنوزها على أرضية هذه التناقضات ومارتبط بها وتفرع عنها من مسائل وحالات حياتية ومصائر بشرية . ويعتبر كشف الطابع التراجيدي للحياةاليومية في مجتمع الملكية الخاصة وتصوير معاناة قوى المجتمع الحية وذبول أرواحــه الميتة الخصيصة الجوهرية لمضمون أعمال الواقعية . واحــد النماذج المنتشرة بشكل واسع في الادب العالمي هو نموذج الانسان ـ ضحية الحياة . كتب ليف تولستوي ، موضحا مغزى روايتي موباسان « الحياة » و «الصديق اللطيف » مايلي : « مات ويموت كل ظيف وطيب في مجتمعنا ، لأن هذا المجتمع سيء ومرعب بشكل غير معقول » .

تجيء أعمال دوستويفسكي وتولستوي كتلخيص لكل العمل العمــلاق للواقعية الكلاسيكية في تصوير حياة المجتمع فيظل الملكية الخاصة . لم تـكشف في الادب العالمي من قبل ابدا ، بمثل هذا الكمال والتركيز ، بمثل هذه الحدة والقسوة ، التناقضات الصارخة بين الفئات العليا ذات الافضلية والامتيازات في مجتمع الاستغلال وبين فقر وقمع الفئات الشعبية الدنيا ، وفي روسيا القيصرية، حيث أضيفت رواسب القنانة والنظام البوليسي الارهابي البشع الى الاستغلال الرأسمالي فزادتــه تفاقما ، بدا كل شيء قذرا بشكل فاضح ، مثيرا الحقــد

والاحتجاج ومغذيا بالتالي الواقعية الروسية .

خلقت المآسي والعذابات الشعبية واستياء جماهير الكادحين في الريف والمدينة غالبا الامزجة والميول الثورية في الوسط الشعبي ذاته وفي أوساط المثقفين الديمقراطيين الطليعيين . كان القرن التاسع عشر عصر الثورات البورجوازية والحركات التحررية القومية المعادية للاقطاع المعبرة عن تطلعات الجماهير الكادحة التي غدت أساس وأداة هذه الثورات والحركات . ووجد هذا الامر انعكاساته أيضا في المضمون الفكري ـ التاريخي لادب الواقعية النقدية .

ظهرت نماذج الثوريين في الادب العالمي منذ عصر الثورة الفرنسية في مؤلفات غوته وشيللر . وفي شكل رومانتكي يظهر الثوريون ـ الديمقراطيون على صفحات روايات جورج صاند وهوغو ، وتجد نماذجهم تجسيدا فنيا في الكاتبين بلزاك وستندال ـ معاصري الحركة الثورية الديمقراطية في فرنسا وايطاليا . وقد أشار انجلس الى مأثرة بلزاك في تصويره الصادق لثوريي زمانه المشتركين في انتفاضة باريس في الخامس والسادس من شهر حزيران لعام ١٨٣٢ . ورأى ستندال اناسا حقيقيين صميميين في وسط المحامين الايطاليين. وجدت الروح الثورية تجسيدا لها في التيارات الثورية الكلاسيكية والرومانتيكية، ولاحقا وجدت التصوير الموضوعي في لوحات واقعية وفي نماذج مجسدة لمراحل هامة من تاريخ الثورة من عهد كونفانت وحتى كومونة باريس .

تظهر نماذج الثوريين على صفحات الادب الروسي في شخص بطل

« رحلة من بيتربورغ الى موسكو » اراديشيف وفي أبطال الشعر الغنائي لدى الديسمبريين ، بوشكين ، ليرمنتوف ، تاراس شفتشنكو • في الواقعية يرسم هرزن نماذج الثوريين الاوائل ، وفي رواية « ماالعمل ؟ » يبدع تشرنشيفسكي أول نموذج للثوري المحترف في روسيا ـ راخماتوف • وتتسم هذه النماذج كلها بأنها مفعمة بحب وتعاطف مبدعيها • ويدخل في المجموعة الفنية لنماذج المناضلين الثوريين ثوريو سليبصوف في « استهلال » و « الزمن الصعب » وبطل الاشعار الثورية الغنائية في السبيعينات وشخصيات أخرى في الادب الروسي مثل ماريانا في رواية « الأرض البكر » والفتاة القديسة في « العتبة » عند تورغنيف ، واندريه كوجوخوف عند ستيبانياكا ـ كرافشينسكي • ويتسم هؤلاء الابطال جميعا بالروح الروماتيكية الثورية ، بالوعي وبالالتزام الدقيق الصارم الذي يصل حد التقشف والزهد • وتجسد صورهم السمات النموذجية للثوري الروسي الذي جعل تشرنشيفسكي يستخدم لاول مرة في الادب العالمي من أجل تصويره ، ألوان رامبراندت الحادة التي طلبها ماركس من الكتاب الذين يصورون نموذج الثوري •

لاقت نماذج الثوريين الذين صورهم الكتاب الواقعيون الروس صدى عالميا • ففي تصوير نموذج البطل الثوري في روايته « الفحامون » تأثر زولا برواية تشيرنشيفسكي « ماالعمل ؟ » وبنماذج الثوريين الذين صورهم تورغنيف • ونجد صدى « ماالعمل ؟ » في قصص الكاتب السويدي ستريندبرغ الذي كان من أشد المتحمسين لتشرنشيفسكي في شبابه • كما كتب ايتل

فونتش روايته المعروفـة « ذبابة النعرة » تحت تأثير أجواء الأدب الطليعي الروسي •

استطاع أدب الواقعية النقدية تجسيد سمات المناضلين الثوريين في الماضي ــ نقائهم الاخلاقي وسمو تطلعاتهم الانسانية ، واخلاصهم لقضية الكفاح من أجل الحرية ، كما صور فنيا ، الى جانب ذلك ، مصيرهم التراجيدي المرتبط بالاخفاقات التاريخية للحركة التحررية •

وفي أوساط الطبقة المسيطرة وبين صفوف المثقفين التقدميين ، وليس في الوسط الشعبي فقط ، أناس مخلصون شرفاء غير ثوريين ، لكنهم متعاطفون مع قضايا الشعب ومشفقون على آلامه يتمنون بصدق الخير العميم ويتطلعون الى العدالة • تمر نماذج الابطال الخارجين مـن صفوف الطبقـات المسيطرة والراغبين بتبني وجهة نظر المصالح الشعبية كسلسلة طويلة في الادب العالمي في القرن التاسع عشر • وقد دل ظهور مثل هذه الشخصيات لوحده على اعتراف من جانب الادب التقدمي بضرورة التغيير الاجتماعي للحياة •

الى جانب ذلك صور العديد من أعمال الواقعية الاوروبية الغربية فـي القرن التاسع عشر بدءا من بلزاك ، وفي الادب الروسي بدءا من « مصيبة من العقل » لغريبايدوف انهيار الاوهام الفكرية التي كانت لدى كثيرين مـن الشباب ذوي الميول التقدمية من شتى الاوساط الاجتماعية • وتجلى هذا الانهيار في عجز الانسان ذي الارادة الحرة والتفكير المستقل ، في اصطدامه بقوى الجمود والرجعية ، في خيبة الامل اليوم فيما كان أمس حقيقة ، وفـي

الحلول الوسط والمصالحة ومن ثم في الانغلاق والانكفاء على الذات ـ الأمر الذي وجد تعبيرا له في التأملية الذهنية لدى العديد من المثقفين التقدميين غير الراغبين بخدمة البورجوازية ، انما وغير المرتبطين بنضال الجماهير الكادحة . وتعتبر دراما سولنس بطل ابسن الذي ألقى بنفسه من أعلى البرج الذي بناه ، الى حد ما ، رمزا لمثل هذه الدرامات الروحية . وبالمقابل كان أساس الرضى والفرح في مثل هذه الحالات والاشكالات الحياتية مرتبطاً « بالسعادة البورجوازية الصغيرة » (بامبلوفسكي) التي عنت قبل كل شيء المصالحة مع الحياة ، والتراجع عن المثل الاعلى السامي وفقدان الكرامة الانسانية ـ الامر الذي صوره تشيخوف بدقة وصدق . وعالجت أعمال واقعية كثيرة هذه المسألة ـ مسألة المثقفين التقدميين في القرن التاسع عشر ـ (الانسان الزائد) . جسد الادب الواقعي الروسي المصائر الدرامية للمثقفين الطليعيين الروس ويكفي أن نذكر هنا بأعمال غريبايدوف ، بوشكين ، هرزن ، تورغنيف ، تشيخوف وغيرهم ...

يمكن أن نقول وبدون مبالغة أن تصوير التناقضات القائمة بين التطور الروحي ـ الخلقي للفرد وبين الظروف الاجتماعية غير المواتية لهذا التطور قد شكل المضمون الرئيسي الهام للادب الواقعي في أوروبا وللواقعية الامريكية فيما بعد . وتكمن هذه التناقضات بهذا الشكل أو ذاك في أساس الصدامات والصراعات الحياتية القائمة في أهم أعمال الادب العالمي .

وجسد العديد من النماذج الادبية الحية التي خلقها فن الواقعية في القرن

التاسع عشر النضال البطولي المتواصل أبدا للبشر من أجل كرامة الانسان وسعادته •

ثمة صفحات شاعرية خالدة واشعار غنائية كثيرة تصور مشاعر ومعاناة انسانية كالتعلق بالوطن ،الحب، الصداقة وصفات شخصية كالرجولة والشجاعة خالدة وأشعار غنائية كثيرة تصور مشاعر ومعاناة انسانية كالتعلق بالوطن ، الحب ، الصداقة وصفات شخصية كالرجولة والشجاعة في مواجهة شدائد الحياة ، وأخيراً الحب للاطفال وللاهل ، وبصرف النظر عن كل توجهه وميله النقدي تطلع الكاتب الواقعي دائما ، عندما كان يلحظ شيئا ما ايجابيا وجيدا الى تصويره من أجل ترسيخه في الواقع •

لكن ، رغم ذلك ، فقد كشف الادب الواقعي بشكل واسع تلك العملية التي أسماها غوركي انحلال الشخصية كتب غوركي عام ١٩٠٩ مايلي : « تأمل أن يكتب أحد الرجال المخلصين الشرفاء كتابا حزينا بعنوان « انحلال الشخصية » يعبر فيه بوضوح عن عملية الافقار الروحي المستمرة للانسان وتقلص ذاته » • ويعتبر تاريخ الادب العالمي وفن الواقعية في المقام الاول خير شاهد على هذه العملية •

تقود عملية انحلال الشخصية الى تفكك وتفتيت النماذج الانسانية التي يضطر الكتاب الواقعيون في نهاية القرن التاسع عشروبداية القرن العشرين للرضى والتسليم بها •

ان موضوع « الانسان الصغير » الذي شغل الادب التقدمي الى حين ،

مع احتفاظه باهميته ، تحول في أعمال تشيخوف ، وموباسان وغيرهم بالتدريج الى موضوع الانسان « الضئيل » الضيق الافق الذي لاتتجاوز تطلعاته اطار الحياة اليومية الخاصة بالبورجوازي الصغير .

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أشار كثيرون من الكتاب النابهين في الغرب وفي روسيا — فرلين ، بورجيه ، ابسن ، تشيخوف ، بلوك الى الانتشار المتزايد « للتعب النفسي » ومزاج اليأس وعدم الايمان بالحياة وكذلك الى انفصام الشخصية الذي أشار اليه دوستويفسكي في « المثل » . كتب دوستويفسكي بهذا الصدد ما يلي : « انها فكرة رائعة ونموذج عظيم من حيث أهميته ومغزاه الاجتماعي وقد كنت أول من تنبأ به » .

وتغدو دراما انفصام الشخصية واحدة من أهم مواضيع الادب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اذ يفقد انسان المجتمع البورجوازي وضوح شخصيته واستقلالها .

ويتفاقم اغتراب الانسان عن المجتمع والناس عن بعضهم حتى في الاسرة — الامر الذي وجد تصويرا له في الكثير من أعمال الادب العالمي في نهاية القرن التاسع عشر والثلث الاول من القرن العشرين من قصة « ايفان ايليتش » لتولستوي الى رواية فرانسوا مورياك « عقدة الافاعي — ١٩٣٢ » . وتؤلف عملية « تقزم » الانسان واغترابه في ظل ظروف مجتمع الملكية الجانب الهام والجوهري في مضمون أدب الواقعية النقدية .

في نهاية القرن التاسع عشر يعاني الكتاب الواقعيون أكثر فأكثر ، في

الغرب وفي روسيا ، مصاعب جدية في خلق النموذج الايجابي الذي من شأنه تجسيد الافق التاريخي للتطور الاجتماعي • فيحاول كثيرون منهم ارضاء هذا التطلع باللجوء الى مجال الابداع الذهني للانسان وجانب العلاقات الاخلاقية والسلوكية لحياة البشر مثل الحب ، الصداقة•• وغيرها • لكن واجهت الكاتب هنا محدودية الامكانات والفرص التي يتيحها الواقع •

كانت الاعمال الفذة في الماضي تستقي مادتها من المآسي والشقاء والعذابات التي تعترض سبيل حياة الانسان ، أي كان الجميل والرائع في الفن يأتي من تصوير القباحة والتشوه القائمين في الواقع • لم تكن غاية المعالجات الفنية المختلفة والتصعيد الدرامي والرواية القديمتين وكذلك معاناة البطل في الاشعار الغنائية التي تصور طاقة الانسان ، حماسه ونشاطه وقواه الخلقية ، تثبيت قيم انسانية معينة بقدر ماكانت موجهة من أجل الصمود في الكفاح من أجل الحياة وتجاوز الظروف الصعبة غير المواتية • كان على تولستوي ، مثلا ، أن يخصص القسم الاعظم من روايته « آنا كارنينا » لتصوير مصائب ومآسي أبطاله •• ولهذا السبب اتخذ تصوير الانسان في الغالب طابعا سلبيا •

من أجل التأكيد على شيء ما سام أو ترسيخه نادرا ماكان الكاتب الواقعي يجد مستندا في الحياة • وقد عكس فقدان البطل الايجابي الحركة العامة المتصاعدة في ذلك الوقت لعملية انحلال وبؤس شخصية الانسان في المجتمع البورجوازي ــ الأمر الذي كان لا بد أن يجد صداه في مصائر الفن الواقعي •

— ٣ —

كان تطور الايديولوجيا البورجوازية الديمقراطية الارضية الفكرية للواقعية في القرن التاسع عشر بشكل رئيسي . وكانت الافكار الديمقراطية والانسانية في أشكالها ومظاهرها المختلفة بدءا من الاعتراف بالانسان سيد مخلوقات الطبيعة ، حامل العقل وخالق الحياة ، وانتهاء باعلان حرية ومساواة واخوة الانسان كأساس لحياة المجتمع الانساني العامل الفعلي للتطور التقدمي للأدب العالمي وبالاخص أدب الواقعية .

قامت أفكار الحرية والمساواة والاخوة من خلال نضال الشعوب ضد العهد الاقطاعي القديم وتجلت بأقوى واسطع مايكون ابان الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر التي فجرت حماسة جميع كتاب العالم التقدميين .

بيد أن الثورة الفرنسية قادت الى قيام النظام البورجوازي ـ الرأسمالي وغدت مملكة العقل التي وعد بها المتنورون مملكة البورجوازية في آخرالامر . منذ ذلك الحين بات كثيرون من رجالات الثقافة ، بمن فيهم الكتاب الواقعيون، يتساءلون الى أي حد مفيدة فكرة تغيير المجتمع عن طريق الثورة ، حيث تقطف الطبقات المسيطرة بشكل رئيسي ثمار جميع الثورات المتعاقبة . أما الناس البسطاء فمازالوا، كما في السابق، يرزحون تحت نير الظلم والعبودية ويحصدون المآسي . اعتقد شيللر الذي رأى قبل غيره ثمار الثورة البورجوازية الفرنسية أن تغيير الحياة والانسان بواسطة الثورة غير ممكن ، بل يجب من أجل ذلك السير بطريق التطور السلمي الذي يعتبر الفن والتربية الجمالية العامل الاساسي فيه . وعن « الثورات الفاشلة » كتب الكاتب الرومانتيكي نوديه والواقعي

بلزاك . واعتبر ديكنز القرن السابع عشر عصراً عظيما في تاريخ انكلترا وكتب رواية مفعمة بروح التعاطف مع الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر . لكنه لتبرمه وعدم رضاه بواقع زمانه فضل ان يعلق الآمال لاعلى الثورة ، انما على الاصلاحات السلمية بروح النزعة الانسانية والعدالة الاجتماعية .

وفي الادب الروسي أيضا تصادفنا آراء وأهواء تشكك بالطرق الثورية لتغيير الحياة . فقد برزت شكوك من هذا القبيل لدى هرزن مثلا وهو يراقب في الغرب ثورة ١٨٤٨ ، لكنه تجاوز ذلك فيما بعد تحت تأثير المناخ الثوري السائد في روسيا في ستينات ذلك العصر ، فقد دعا الديمقراطيون الثوريون روسيا الى العمل الى الثورة . لكن الثورة الفلاحية الحاصلة هنا قادت الى نفس نتائج ثورة اليعاقبة في فرنسا من الناحية الاجتماعية ـ الاقتصادية في نهاية القرن الثامن عشر ـ أي الى قيام نظام بورجوازي ـ رأسمالي .

وهذا ماحصل لدوستويفسكي . فبعد الشرخ الذي أصاب تطوره الروحي والنفسي يصل الى استنتاج عام مؤداه ان ثورة ١٧٨٩ لم تقدم للانسانية سوى الضلال والشر والعنف ، وكانت عاقبتها نابليون روتشيلد وسطوة الجشع الحيواني . كان برنارد شو بعيدا من حيث المواقع الفكرية عن دوستويفسكي ، لكن كانت تدور في رأسه أشباه هذه الافكار . كتب متذكرا عنف اليعقوبيين ما يلي : « وماذا كانت النتيجة ؟ فرنسا الامبراطورية وآل روغون وفرنسا الجمهورية وفضيحة بانما وقضية دريفوس . هل كان ذلك يستحق كل هذه المذابح للنساء والرجال أياً كانت الاسباب والنوايا . ومن أجل هذه النتائج هل يقرر انسان سليم التفكير حتى ذبح فأر » .

الى مثل هذه الخلاصة توصل ليف نيكولايفيتش تولستوي . كتب في دفتر مذكراته عام ١٩٠٢ مايلي : « النصف الاول من القرن التاسع عشر بكامله مملوء بمحاولات نسف النظام الحكومي الظالم بواسطة الثورة والعنف لكن كل هذه المحاولات قادت الى رد فعل والى تعزيز سلطة الطبقات الحاكمة » . لم يقصد بذلك « الثورة الفرنسية الكبرى » بل وثورتي ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . وبصدد « المحاولات الروسية للثورة عن غير طريق القصر » بدءا من ١٤ كانون أول ١٨٢٥ (ثورة الديسمبريين) يشير تولستوي الى انها جميعا لم تستطع الانتهاء الى شيء سوى تقتيل الكثير من الناس الجيدين والى رد فعل عنيف من جانب الحكومة » .

كان ثوريو السبعينات الشجعان « أناسا جيدين » في نظر تولستوي ونظر تورغنيف أيضا . لكن العنف والكفاح الثوري أرعبا تولتسوي ولم يسفرا برأيه عن أية نتائج مثمرة . كشف تورغنيف دراما الحركة الشعبوية الثورية في السبعينات بصدق في روايته الارض البكر . ويبرز الشك بقدرات الثورة من خلال تصوير مصائر الثورة الفرنسية ١٧٩٢ ــ ١٧٩٤ في رواية أناتول فرانس « الآلهة العطشى » المكتوبة بعد فشل ثورة ١٩٠٥ في روسيا التي هزت نهايتها التراجيدية المفجعة الكاتب الفرنسي العظيم المتعاطف معها .

لكن الكتاب الانسانيين في الماضي الذين رفضوا الثورة لم يفهموا انه لايمكن تخليص الشعب من مضطهديه بطريقة أخرى . فقد عول أغلب الكتاب الواقعيين على التقدم السلمي وربطوه بالاصلاح الاجتماعي ، بتطور الحريات

الديمقراطية والعلم والفن والمعارف وبانتشار مبادىء الانسانية والعدالة • اعتبروا أناس الروح ــ المثقفين « ملح الارض » وعليهم علقوا الآمال في تحسين الحياة وفي التطور التقدمي للانسانية • أعلن تورغنيف ذلك بصراحة في جداله مع هرزن في الستينات • وعلق صديقه فلوبير كذلك كل الآمال على رجال الفكر والعلم • وينطبق هذا الامر ، الى هذه الدرجة أو تلك على زولا ، فرانس ، شو ، ويلز رومان رولان ، وعلى كثيرين من الكتاب الواقعيين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين •

كان لمثل هذه التمنيات والآمال أساس تاريخي موضوعي • فقد كانت شعارات الحرية والمساواة والاخوة التي أطلقتها الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر نصرا عظيما للعقل الانساني • تطورت الفلسفة والعلوم الاجتماعية والطبيعية ونفذت بعمق تدريجيا الى حياة المجتمع وأسرار الطبيعة ، ومع كل انجاز جديد للفكر الاجتماعي الطليعي ، كانت تنتعش ثانية الآمال المعلقة على العقل الانساني ، على أناس الروح ومقدرتهم على تغيير العالم وتحسينه •

وسعى كثيرون من الكتاب الواقعيين لارضاء رغبتهم في تجسيد المثل الاعلى الايجابي فتوجهوا نحو مجالات الابداع الذهني للانسان من علم وفن وتقدم تقني • فأعطى أدب الواقعية على امتداد القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين العديد من النماذج الرائعة الفذة لاناس الفن والعلم مكبرين سعادة الابداع والخلق واعطاء الذات كليا للقضية المحببة ــ فمن أبطال بلزاك الى جان كريستوف لرومان رولان ومن فاوست غوته الى فاوست توماس مان •

قال رومان رولان بما يشبه صيحة الرضى : « آه ياسعادة الخلق الالهية ثمة سعادة واحدة فقط هي سعادة الخلق . يعيش فقط من يبدع » .لكـن في مجال الفن أو العلم فقط كانت ثمة امكانات وفرص متاحة أمام الكاتب الواقعي النقدي لأن يعكس صورة السرور الذي يتركه العمل الخلاق في الانسان .

وهنا يكمن السبب الذي جعل الموضوع الانساني للفن والعلم موضوعا مرغوبا ومحببا لدى كثيرين من كتاب الواقعية في الماضي . لكن ضاق مجال هذه الامكانات والفرص مع الزمن أمام ضرورة تصوير الطابع الدرامي لمصير العالم أوالفنان الشريف في ظل أوضاع عالم الملكية .

طرح بعض الكتاب فكرة التربية الجمالية للمجتمع من جديد ورأوا في الفن وسيلة انقاذ من تفاهات المجتمع البورجوازي ، وقلعة للروح . لكن لم يكـن ذلك في كل مرة سوى شكل جديد من اللجوء الشيللري غير الموفق الى مملكة الجمال . كان بلزاك قد أوضح قبلا ان الرأسمالية تحول كل القيم الروحية الى سلعة . أما كيف يغدو الفن والكتابة عموما مادة للتجارة فقد تحدث عن ذلك رولان في « سوق في الساحة » ومن بعده درايزر في روايته « العبقري » .

وبدت وهمية كذلك الآمال المعلقة على دور العلم والتقنية في التغيـير الاجتماعي للمجتمع . ففي عصر الواقعية النقدية تطـورت في الادب العالمي روايات الخيال العلمي التي نفذت بجرأة على يد جول فيرن ، هربرت ويلز وغيرهم مستندة على معطيات العلم والتقنية الى مستقبل التقدم العلمي ـ التقني القريب والبعيد للانسانية كاشفة ، في اشكال طوباويات اجتماعية ، تطـور

المجتمع الانساني • لكن رأى الكتاب فيما بعد سريعا عدم استقلالية العلم والعلماء من كيس النقود « الخالد » ـ أ• دوديه ، « النفق » ـ كيلرمان ، روايات بيير آمبا) • وأوضح هربرت ويلز تفسه عبثية طوباويته الاجتماعية التكنوقراطية • ففي روايته « عندما يستيقظ النائم » عندما يستيقظ الحالم والمخترع العظيم غريم بعدمائتيعاملايرى في انكلترامملكة الحريةوالديمقراطية التي يديرها عباقرة العلم والتقنية بل سيطرة شاملة لاحدود لها للاحتكارات الرأسمالية الرهيبة وعبودية اقتصادية تامة للجماهير الكادحة •

تحب الدعاية البورجوازية ان تردد دوما نغمة المبادرات الفردية الحـرة « البناءة » التي يتيحها النظام الرأسمالي • وقد أشارت الواقعية الى الجانب التقدمي لهذا الامر ، لكنها أكدت على أن هذه المبادرات الحرة لا تبني حضارة انسانية ، كما فضحت الاوهام المرتكزة على « الطاقات الخلاقة » التي تطلقهـا الرأسمالية • أما الطابع الاناني والجشع الوحشي الذي تتميز به هذه المبادرات فممثل بشكل ساطع في « النقود » ـ زولا ، في روايات « نهاية بورجوازي » ليمونيه ، « مدينة اناتول » ـ كيلرمان ، « ثلاثية الرغبة » ـ درايزر • ولعبت دورا كبيرا في التطور الروحي لكثيرين من كتاب أوروبا أوهام وطوباويات اجتماعية أخلاقية أين منبعها القرية والميول الفلاحية ـ الديمقراطية ذاتالطابع البطريركي • فمن جورج صاند في المرحلة الاخيرة الى الكتاب « الشعبيين » الروس وحتى تولستوي العظيم توالت النداءات بالعودة الى رحاب الطبيعة ، الى عالم العلاقات الريفية البطريركية ورفض التقدم الصناعي الذي يحمل معه

انهيار القيم وفساد الاخلاق • وتغنى كثيرون بالحياة الفلاحية ، بحياة القرية كركيزة أساسية للصفاء الخلقي والانسانية الحقة ورفضوا المدينة « الفاسدة» • امتدحت جورج صاند في رواياتها الفلاحية الوسط الريفي وحلمت باقامةمشاعة في مكان ما في حضن الطبيعة بعيدا عن المدينة الصناعية (طحان من أنجيبو)• ورسم دوديه في أعماله عن القرية ، اويرباخ في (أقاصيص ريفية) ، وتوماس هاردي (تحت الشجرة الخضراء) ، ويلهيلم بوليتنص (روايةالفلاح) رايمونت (رواية « الرجال ») والكتاب الشعبيون الروس ــ رسموا جميعا بألوان فاقعة وبتفصيل كبير حياة القرية والطبيعة الريفية الهادئة العذراء ، قدموانماذج خلابــة تكشف عن طيبة الانسان الريفي والسمات الخلقية الرفيعــة للوسط الفلاحي الكادح •

في روسيا سخر تورغنيف منذ مطلع الستينات ، بعد الغاء نظام القنانة مباشرة ، من ايمان هرزن الشعبي بالخصائص « الخلاقة » للمشاعية الفلاحية• أظهر فن الواقعية النقدية في الغرب (زولا وموباسان) وفي روسيا (تشيخوف وبونين) خيالية الآمال الرومانتيكية بخصوص البطريركية الفلاحية ، موضحا الانقسام الطبقي لجمهور الفلاحين ، وجمود وتخلف الحياة الريفية وتفسخ القرية بفعل هجوم المدينة الرأسمالية عليها • واذا كانت فرائص ليمونيه ترتعد من تزايد حدة التناقضات الاجتماعية وانحلال المجتمع البورجوازي ، لذا يكبر في أعماله سكان الغابات والحقول الذين لم تدنسهم المدينة وينادي بالخروج من المدينة الى رحاب الطبيعة (رواية « ضميران » وغيرها) فان معاصرهالكاتب البلجيكي الآخر ــ فرهارن ــ يوضح الدراما الاجتماعية للقرية الفلامندية

القديمة الحبيبة على قلبه التي تضمحل وتموت تدريجيا (« قرى في غيبوبة ») (« قرى الأشباح ») ويخنقها الاخطبوط ـ المدينة الرأسمالية .

خراب الوسط الفلاحي الكادح وانهيار العلاقات البطريركية هما موضوع رواية « الارض التي تموت » للكاتب الفرنسي ر. بازين ورواية « العزبة الملعونة » للكاتب الاسباني بلاسكوايبانيس . وفي عصرنا يكتمل هذا الموضوع بتصوير التراجيديا العنيفة للمزارعين الامريكيين في رواية الكاتب الامريكي جون شتاينبك « عناقيد الغضب » .

لقد شكلت كل مرحلة جديدة في التطور التقدمي للمجتمع آمالا جديدة بخصوص امكانية تحقيق المثل الانسانية في الواقع القائم . وأشار فريدريك انجلس في معرض مقارنته بين عبودية القنانة والعبودية الرأسمالية الى أن الاخيرة قد جلبت معها على الاقل مبدأ الحرية وكونت في رؤوس الناس المقدمة الضرورية لتجسيدها في الحياة . وبالتدريج تتشكل المقدمات الاجتماعية والاقتصادية الموضوعية لتحرير الانسانية . لكن مع ذلك ، مع كل خطوة للمدنية الى الامام تخطو اللامساواة خطوة الى الامام أيضا ، وكل المؤسسات التي تقوم مع تطور المدنية تتحول الى مؤسسات ذات طبيعة مناقضة لما انشئت من أجله » . مع كل مرحلة من مراحل تطور مجتمع الملكية الخاصة تتعمق وتتفاقم التناقضات الاجتماعية وآلام ومآسي ملايين الكادحين والصراع المزمن بين « الكبار » والصغار الامر الذي خلق الشك بشتى النظريات السوسيولوجية والمقولات الاجتماعية ووجد تعبيرا له في أدب الواقعية .

وتخيب آمال معظم الكتاب الواقعيين بالديمقراطية البورجوازية • فابسن يقرر على لسان بطله شتوكمان انه قد تسممت « كل ينابيعنا الروحية » وان « كل حياتنا الاجتماعية تقوم على أساس من التزييف والدجل » ويقول غوركي ان اناتول فرانس « لم يترك جانبا من جوانب الاساس الفكري للدولة البورجوازية دون اظهار معناه المتناقض المنافق واللاانساني » • وبالنسبة لابسن وفرانس ، لتولستوي ودوستويفسكي فان شتى نظريات التقدم البورجوازية التي تكشف بوضوح عن علاقتها بالطبقات المسيطرة غير مقبولة • واذا كانت الليبرالية البورجوازية قد أخذت مكانها في سلسلة الاشكال الديمقراطية وخدعت الكثيرين في الغرب ، فان عجز الليبراليين وضجيجهم الفارغ في روسيا في نهاية القرن التاسع عشر قد أثارا أفكارا سوداء حتى لدى بطل تورغنيف «بوستينوفيش» في أواخر حياته • وكشف تولستوي في «آنا كارنينا » ومن ثم في « البعث » الجوهر الحقيقي لليبرالية النبلاء ــ البورجوازيين الروس • عرى الكاتب العظيم وانتقد بلاهوادة المقولات البورجوازية على صعيد المجتمع والسياسة وكذلك الفن اللاشعبي كما اعتبره ــ الذي نما على أرضية مجتمع الملكية •

غذت الاوهام زمنا طويلا مفكري أوروبا بخصوص ديمقراطية « العالم الجديد » الفتية • ونشر هذه الاوهام حتى كتاب أمريكا العظام أنفسهم ، وكان مغنيها المبكر الشاعر وولت ويتمان من أوائل من خاب أملهم فيها • صور الكاتب فاينمر كوبر ومن بعده هاورد فاست أيضا المصير التراجيدي لسكان أمريكا الشمالية • كما هزت العالم « كوخ العم توم » لبيتشر ستو •

في المرحلة الاولى من حياته الابداعية كان مارك توين مقتنعا ان الديمقراطية الامريكية ، بمساواتها الجميع أمام القانون ، بحرية الكلمة في ظلها ، بانتخاباتها العامة ، تعتبر وطن الاوضاع والانظمة « السليمة » ومؤهلة لتحقيق آمال وطموحات الانسانية . لكنه ، مع تعمقه في ادراك الجوهر الاستغلالي للديمقراطية البورجوازية الامريكية ، يتجاوز تدريجيا الاوهام ويصبح هجاء عنيفا للطبيعة القذرة المميزة للرأسمالية الامريكية ، خصوصا في طور انتقالها الى مرحلة الامبريالية . ويتوصل الكاتب الامريكي الكبير الى خلاصة مؤداها انه في أمريكا الامبريالية ، « كما في كل مكان » « الاموات وحدهم يملكون حرية الكلمة » وان حياة « العالم الجديد » قاسية جدا . وترن السخرية المرة من الديمقراطية الامريكية وعبادتها للدولار في قصة مارك توين « الرجل الذي أغوى هيدلبرغ » ــ ١٨٩٩ . وحتى نهاية حياته بقي الكاتب يعاني القلق والهم والتشاؤم دون أن يجد مخرجا لذلك فيعرب عن أسفه لأن « هذا العالم غير مملوء بالكتب التي تسخر من الحياة البائسة ، من هذا العالم الذي لامعنى له ومن الجنس البشري الوضيع » .

السمة العامة لمضمون الواقعية الكلاسيكية الفكرية اذن هو التناقض بين المثل الاعلى الانساني للكاتب والصعوبة الفعلية في ايجاد تجسيد له في الحياة في ظروف مجتمع الاستغلال . كتب دوستويفسكي الى س. ايفانوفا عام ١٨٦٧ عندما كان منكبا على كتابة روايته « الابله » مايلي : « الفكرة الرئيسية للرواية هي التصوير الايجابي للبطل المثالي . وليس ثمة ماهو أصعب من ذلك في هذا العالم وخصوصا الآن . فجميع الكتاب الذين تنطحوا لهذا

الموضوع من روس وأوربيين جادلوا ثم استسلموا في النهاية لان المهمة عسيرة للغاية • فالبطل المثالي لم يخلق بعد لاعندنا ولا في أوروبا المتمدنة » •

تسم أعمال الكتاب الفرنسيين والانكليز التقدميين في القرن الثامن عشر المرتبطين فكريا بالطبقة الثالثة بالنقد الصادق المصيب للنظام القديم ولأخلاق الطبقة الارستقراطية ــ النبيلة ــ هذا النقد الذي أمد واقعيتهم بالقوة والعافية• وعندما كان الكتاب يتطرقون الى واقع الوسط البورجوازي القريب والمحبب الى قلوبهم كانت تتخلل تصورهم في غالب الاحيان نفحات التمجيد والتعاطف التي تضعف قوة الفن الواقعي وموضوعيته • برزت هذه الظاهرة في الادب الروسي في القرن التاسع عشر في يوتوبيا غوغول الرجعية في القسم الثاني من « الارواح الميتة » وفي الانبعاث الاخلاقي لبطل تولستوي نيخلودوف في رواية « البعث » على سبيل المثال • فقد استبدل التصوير الموضوعي للواقع الى هذا الحد أو ذاك بتجسيد المثل الاعلى الذاتي للكاتب ، لم يعد الواقع مصدر التصوير ، بل رؤية الكاتب لما يجب أن يكون عليه هذا الواقع • بهذا الشكل تصبح واقعية القرن الثامن عشر قريبة من الكلاسيكية ، أما واقعية القرن التاسع عشر فتقترب من الرومانتيكية • من أجل تجاوز مثل هذه الحالة لجأ ليرمنتوف الى الشكل الرومانتيكي عندما كان يريد تقديم نموذج البطل المحب للحرية وكان في ذلك كاتبا واقعيا عظيما • لم ير الكاتب في الحياة الروسية في الثلاثينات أشكالا تاريخية حقيقية في الواقع تجسد مثال المحب للحرية كتلك التي أتاحتها الحياة في العشرينات الى حد ما من خلال حركة الديسمبريين والتي مكنت غريبايدوف من تقديم نموذج رائع في شكل واقعي (بطل «مصيبة من العقل»)•

حمل الكتاب في أوساط المثقفين الديمقراطيين أوهاما بخصوص حل التناقضات الاجتماعية وتسوية الصراعات الطبقية سلمياً وبشكل تدريجي وتوحيد الناس بالفن على أرضية المثل العليا « القومية » و «الانسانية العامة». لكن مع ازدياد حدة التناقضات الاجتماعية للرأسمالية ، تطور وتعمق الطابع النقدي للفن الواقعي ، وبرز واتضح افلاس أفكار التقدم السلمي ، الاصلاحات « من فوق » والقضاء التدريجي على التناحر الطبقي والتناقضات بين «الاعلين» و « الأدنين » في المجتمع . قال ابسن عام ١٨٧٠ حول مصير مبادىء ثورة ١٧٨٩ مايلي : « مازلنا في الحقيقة نتغذى حتى الآن من فتات مائدةثورة القرن الماضي وهذا الطعام قد مضغته الاسنان بما فيه الكفاية ، أصبحت المفاهيم بحاجة الى مضمون جديد وفهم جديد أيضا ، فالحرية والمساواة والاخوة لم تعد هي هي كما كانت عليه في السابق . » .

ويمكن القول ان التطور الفكري لواقعية القرن التاسع عشر يمثل عملية تعاقب متواصل للآمال والرجاءات من جهة و « للاوهام » المتبخرة من جهة ثانية . برزت هذه النقطة لدى بوشكين وليرمنتوف ، نيكراسوف وشيدرين، ديكنز وهاردي ، ابسن ومارك توين . لكن كثيرا ماتنسب نظرية الادب عندنا، دونما أساس كاف ، الى جميع كتاب الماضي تقريبا التفاؤل المستقيم معتبرةذلك مقياس تقدميتهم . من الضروري ، برأينا ، بحث هذه الحالة في كل مرة بشكل تاريخي ـ ملموس .

الروح الانسانية كانت ، كما أشرنا ، سمة لازمت أدب الواقعية النقدية

خلال تطوره . لكن صارت تبرز مع الزمن وبالتدريج طوباوية وعدم جدوى هذا النزوع الانساني ، وقد أشار الى ذلك الكاتب العظيم دوستويفسكي . يتكشف وبوضوح أكثر تدريجيا الصراع المتأزم الذي لايجد حلا بين المثل الاعلى الانساني للحرية والتطور الشامل للشخصية الانسانية وبين الطبيعة الاجتماعية للمجتمع البورجوازي ــ الرأسمالي . وكثيرا ماغدا مفهوم الانسانية بالذات يستخدم لتغطية أفكار السلام الطبقي ، للتبشير بالخير البورجوازي ولتبرير الجبن الليبرالي .

في ظروف الصراع الطبقي المتفاقم بين المضطهدين والمضطهدين انقلبت الدعوة الى « الانسانية العامة » والتفكير « بالفرد الانساني بشكل عام » الى دفاع بورجوازي ــ ليبرالي عن مصالح الطبقات المسيطرة ، وقد فضح مثل هذه الانسانية المزيفة في الادب في نهاية القرن التاسع عشر كل من شيدرين ، أناتول فرانس ، برنارد شو .

لم يكن هناك أي شيء مشترك طبعا بين كتاب مرحلة ماقبل الثورة الانسانيين العظام ــ العجوزين فيكتور هوغو وليف تولستوي والشابين ــ رومان رولان ورابندرانات طاغور وبين الانسانية المزيفة للطبقات المسيطرة . لكن المثل الاعلى الانساني تجسد في مؤلفاتهم بقوة واخلاص كبيرين وأثاروا بذلك أصداء التأييد والاعجاب في كل العالم . عمل رومان رولان كأستاذه تولستوي بشكل حثيث لايقاظ مشاعر الحب والاخوة الكامنة في نفوس الناس ودعا البشرية الى الاتحاد . لكن انكشفت طوباوية انسانيتهم في المصير

التراجيدي لآمالهم ، ووجهت ثورة ١٩٠٥ صفعة قوية الى التولستوية •

قبرت الحرب العالمية الاولى ، التي حركت العقول في أوساط المثقفين الديمقراطيين الانسانية البورجوازية ـ الديمقراطية الخيالية ويشتد تأثير شتى التيارات المشككة بقوى العقل الانساني • وتخيم النزعات التشاؤمية بشكل قوي على اناتول فرانس ، فبعد روايته « جزيرة البطريق » يكتب « ثـورة الملائكــة » ـ ١٩١٤ المجسدة لفكرة الحركة الدائرية اللامجدية للتاريخ • أما أوهام رومان رولان الانسانية المعروفة في سنوات الحرب فقد قادته الى دراما روحية عميقة • واعترف الكاتب الانساني العظيم الذي حاول الارتفاع فـوق مستوى « الاحداث الجارية » بعد ذلــك ان هــذه الاوهام « خداع للذات وللاخرين » •

بحث توماس مان ، الذي اعتبر نفسه تلميذ الانسانية الاوروبية ، فـي المجتمع المعاصر له عن القوى القادرة على تجسيد المثـل الاعلى للانسانيـة الكلاسيكية • لكن بحثه الدقيق والدؤوب لم يخرج أيضاعن اطار البورجوازية الديمقراطية • وبددت الحرب أوهـام توماس مان كما بددت من قبل أوهـام رومان رولان • فقد صرح مباشرة بعد الحرب بما يلي : « انتهكت أفضـل أفكار ذلك الزمن » القرن التاسع عشر « الانسانية ميتــة • والخلاصــة : من الضروري تأسيس انسانية جديدة » • كان هؤلاء الكتاب الواقعيون ممثلي أمم متحاربة في ذلك الحين ، لكن مصير انسانيتهم كان واحدا • انهار كل شيء في أوروبا الغالية على قلوبهم • ولم ينقذ شرف قواها الطليعية في ذلك الزمـن

سوى عدد غير كبير من رجال الفكر والفن المرتبطين بحركة البروليتاريا الاشتراكية .

وهكذا وجدت تعبيرا فنيا لها في النتاج الفني لأدب القرن التاسع عشر الواقعي أفكار اقطاعية ـ ارستقراطية ، بورجوازية ـ ليبرالية ، بورجوازية ديمقراطية ـ ثوريه ، راديكاليه بورجوازية صغيرة وأفكار بطريركية دينية فلاحية .. وغيرها . لكن لم تحمل هذه النظريات والافكار التي لم تخرج عن اطار الحركة البورجوازية ـ الديمقراطية ، حتى في أكثر أشكالها ثورية ، معها حلا فعليالتناقضات العمل ورأس المال ، الغنى والفقر ـ تلك التي أقلقت ملايين الناس .

أزهار الكرز أشعار يابانية

● ترجمة: عدنان بغجاتي

ـ ملاحظات حول شعر الهايكو الياباني ـ

الهايكو ضرب من الشعر المقتضب الرقيق يظمه الشعراء اليابانيون منذ مئات السنين وهو قصيدة تتألف من سبعة عشر مقطعا في ثلاثة أبيات (خمسة مقاطع ـ سبعة ـ فخمسة) وتتضمن قصيدة الهايكو غالبا اسم فصل من فصول السنة أو قرينة تدل على هذا الفصل (ففي مقطع أو مقطعين يجعل الشاعر قارئه يستحضر الطقس ، وأوراق النبات أو أزهاره ، والطيور والحشرات ويوقظ فيه المشاعر التقليدية تجاه الفصول) .

من أبرز شعراء الهايكو وعلى يده تم تبلور هذا الضرب من الشعر باشو (١٦٤٤ ـ ١٦٩٤) وقد كان في أواخر أيامه من أتباع مذهب زن البوذي الذي يؤمن بالهوية المشتركة لمجمل أشكال الحياة وقد عبر باشو في شعره عن ادراكه الجذل لهذه الهوية المشتركة في تلك الفلسفة الصوفية فغمر نفسه بادق الاشياء وحولها بحماسته الدينية الى شعر وقد أحبه تابعوه ومن خلفه من الشعراء

فخلدت بذلك فلسفة زن التي ظل أثرها واضحاً حتى في أشعار الهايكو المتأخرة •

يلي باشو بوسون (١٧١٥ ــ ١٧٨٣) الذي كان أكثر ثقافة وتحررا من سلفه الا انه بمستواه في الصنعة والحذق • ويأتي ثالثاً أيسا الحزين (١٧٦٣ ــ ١٨٢٧) الذي ــ استهدفه القدر فاصابه بابنائه • وقد يكون ايسا أقل شاعرية من سابقيه الا انه أكثر قرباً الى القلب منهما • وشعره الرقيق الدامع حول ابنائه الموتى ، وأصدقائه الصغار من الحشرات يوصله الى أي قارىء •

بدهي أنه من المستحيل ترجمة الهايكو ترجمة دقيقة ومحكمة ذلك ان الهايكو زاخر بالاقتباسات والتلميحات التي يشكل كثيرها علينا وان كانت لاتخفى على المتأدب الياباني ، كما انه مفعم بالتوريات والمعاني المزدوجه • اضافة الى ان لغة الهايكو ، كما يحدث بذلك من يعرف اليابانية لاتستخدم ادوات الربط ولا تبين زمن الفعل ولا توضح الضمائر أو دلالات المفرد والجمع ــ فهي صيغة برقية (تلغرافية) الى حد ما •

ترجمت اشعار الهايكو هذه عن الانكليزية عن المجموعة التي نشرتها مطبعة بيتربوبر في نيويورك •

اخيراً لايتوقع من الهايكو ان يكون واضحاً وضوحاً كاملا ولذلك يفترض بالقارىء أن يضيف الى الكلمات بعضاً من تصوراته وتداعياته الخاصة التي تمكنه من ان يصبح نظير الشاعر في خلق متعته الخاصة ويساعد على وصول أفضل للتجربة الشعرية • وهذا ما يأمله المترجم •

الربيع

أمـــام قبر باشو العزيز
نقف
عابري سبيل هزيلين شاحبين
ضباب الربيع ــ والتلميذ الحزين
□ جوسو

هاهي ذي الفئران الوليدة
تراكض في جحورهـــا
بحثـــا
عن مخلفات العصافير
□ باشـــو

فوق القرية
المحاطة بخضرة
ادغال الخيزران السـاكنة
يتباطأ الثلج الابيض
□ تايجي

فوق بحر الربيع المشع
عبر الجبـــال
الملفعة بالثلج
تؤوب الطيور السوداء المهاجرة
□ شيكي

لحظة قدوم الربيع
تؤوب
أسرار السنونو
لـتروح وتجي
□ تايجي

في ليلة رأس السنة ــ
اقدر ان انام بعمق ...
فلن اواجـــه
السنة الجـــديدة
قبل ظهيرة الغـــد
□ بوسون

في فجر السنة الجديدة
تمشى الكراكي المشوقه
بمهابـــة
ووقـــار
□ كيكاكو

على طريق الجبل
ارى مدينة القصر
المضاءة •••
حدءات السنة الجديدة

□ تايجي

في عيد رأس السنة
حين رأيت شهادة ميلادي المحفوظة
في بيتنا العتيق
بكيت

□ باشــو

لا أهلا بك : اخرج •••
بهذه الحفاوه الحاره
استقبلوني
في احتفالهم برأس السنة

□ روتسو

الثلج يذوب •••
بعيداً على الجبــال
الضبابية
غراب ينعب ، ينعب

□ جيوادى

الربيع في باكورة الفجر •••
على اطراف اوراق الشعير
تتألق
او اخر ذرات الجليد الشاحبة

□ اونيتسورا

في الاعالي من ثلوج نيسان
تتفتح البراعم •••
غضــة
ريانة حمراء

□ ساشو

اقطر نور شمعداتنا
يضــيء
ذهب الاشجار
المكنون

□ بوسون

افواج السياح
يأتون في نيسان
يتأملون الزهر •••
يالهم من عصافير بشرية

□ باشو

ريح ربيعية عاصفة ..
غير ان البراعم العنيدة
لاتـزال
متشبثه بأغصانها الهزيلة

اونيسورا

الربيع ينتشر من جديد ...
الآن وانا في طفولتي الثانية
لا أزال
طائشا أحمق .

ايسا

اغصان الدغل الجافـة
تقطع وتكوم
اكوامـا ...
ومن ثم تبرعم بشجاعة

بونشو

اضم الهره
لانها في المـيزان ...
وتمضي هي في لهوها

ايسا

في امسية ربيعية على الشاطيء
اساعد الصيادين
في افراغ
كنز البحر الحي

رانكو

قوى قاهره ...
احجار السياج المنضدة
سقطت جميعهـا
بفضل هرة وهر عاشقين

شيكي

بعد حمام المطر
تقف العصافير
المسحورة بالربيع
تلغو فوق الافاريز

اوكو

بعد ان طهرت جسدي
وحنيت رأسي
لبوذا ...
الآن أنحني لازهار الكرز

ايسـا

هذا الطفل ... حتى
حين تره
براعم الكرز
يفتح فاه الشره

ساي نوجو

الناعورة الجذلى
تصب في الوادي
أوراق أزهار
كرزات الجبل

شوغيتسو

جبل من السحب
ينهض خلف
السور ....
أم خوخة مزهرة !؟

شيرو

راقصا : يعدو الثعلب
فوق أزهار النرجس
الشاحبة
في حديقة ضوء القمر

بوسون

حقول الرز يغمرها الطوفان ...
جاءت البحيرة
الى المدينة
محملة بخضرة أغصان الرز

باكوسوي

في نهار ممطر كئيب ...
تمر أمام بابي
صبية مبللة
تحمل أقواس قزح

شينتوكو

أزهار الكرز المتطايرة
تسقط وتطفو
فوق مياه حقول الرز
الباردة

كيوروكو

تابع السير على الضفة ...
لاميال كثيرة لن تجد
قنطرة للعبور
في هذا اليوم الربيعي الطويل

شيسكي

الصيف

أيها الشفق الربيعي •••
أيتها اللحظة الثمينة
التي تساوي عندي
ألف دينار

سوتوبا

جواب :
ياشفق الصيف
الاسعار تدنت
الى
خمس مئة فقط

كيكاكو

فوق الارجوحة اللاهية •••
طفلة نحيفة
تشد الى صدرها
باقة زهورها

ايسا

آه أيتها الفزاعة المطلة على الدرب
ماكدنا نتخاطب
حتى آن الرحيل

ايزن

لعل أحلام الزهور
الهائمة الصامتة
فراشة ناعسة

رايكان

أحيانا يهب الفلاح خارجا
ليطمئن
على فزاعته ••
لكنه يعود أدراجه ببطء

بوسون

أترى طيور الماء السوداء تلك ؟
رغم انها تبدو
ثقيلة •••
فانها تطفو

اونيتسورا

ذلك الضفدع الضخم الهرم
جاثم هناك
يحدق في
بوجه جهم

□ ايسا

على ضوء الغروب الخافت
فراشة
تطوف •
في شوارع المدينة العتيقة

□ كيكاكو

في ضوء الشمس الغاربه
المبهـره
تحدق الفزاعة •••
بلا مبالاة

□ شيراو

جالس جلسة بوذا
غير ان البعوض
يلسعني
وأنا في أقصى نشوتي (النيرفانا)

□ اومارو

عند المزار العتيق
الذي بهتت نقوشه الذهبية
تعلن الاوراق الخضراء
وقت اليقظة

□ شورا

صفوف منتظمة من الفاصولياء
ومجموعات متناثرة
من الزنابق
ذاك هو الخصب بعينه

□ شيكي

تحت ضوء قمر الصيف
الجدول اللألاء
يتراكض
هابطا درب قريتنا

□ شيراو

قمتا تلتين من حجر اليشب الاخضر
تنتصبان
في موسم ايراقهما •••
صورتان متقابلتان في مرآة

□ كيوأري

البراعة الصفراء ...
كأنها شعلة مصباح صغيرة
لكن حين يلمسها انسان
يحس انها باردة

شيكي

الحقول مشمسة ودافئة ...
أترى الى الراهب
يمد رأسه
خارج سور المعبد

ايسا

سرطان صغير
يزحف فوق كاحاي
آه أيها الجدول
البارد المنساب

باشو

ماأتعسها تلك الطفلة العمياء
بأناقة وبهاء
تزين أزهار الشاروق
رواقها

شيراو

ضوء النهار في غرفة الفندق
يتسلل من خلال
الناموسية المسدلة ...
مجد صباح

شيرو

أمطار الشفق ...
امنحي
رذاذك المنعش
للطيور والجنادب

كيماكو

تعثرت البراعة
من فوق حد المشبة
ومن ثم عاودت الأزيز
من جديد

باشو

حين يلتمع البرق
تردد أصداء صوت
مالك الحزين الطائر في العتمة

باشو

أتسمع الطنين
وقت سقوط
أوراق الأزهار ••
البعوض منزعج

□ يوسون

الاوركيدة المريضة
التي أحسنت رعايتها •••
أخيرا
تشكرني ببرعم

□ تايجي

علق في سلة الصياد الآن ••
الاخطبوط
الشاحب الحالم
تحت ضوء قمر الصيف

□ باشــو

لكن أنظر الى الجبل ••
لا يزال يلهث
بموجات الحر
وقد رحل النهار

□ اونيتسورا

فراشة صفراء ••••
تحوم ، تحوم
فوق المحيط

□ شيكي

ما أرطب هذه النسمة
الآن كل الجنادب
المكتومة الأنفاس
تعود للغناء فرحة

□ ايســا

لن أنسى ما حييت
ذلك المغزى الفريد
لقطرة الندى

□ باشــو

في الحوض الذي خلفته الامطار
لا تزال البطات
التي لما تذبح
توقوق فرحــة

□ ايســا

أسرة الدوري
تلعب متخفية
وتنقب
بين شجيرات الشاي
□ ايسا

الحقل المزهر عند الشفق ..
القمر يصل
في شرقي السماء
والشمس تأفل في غربها
□ بوسون

الليل يحل ...
صامته
في مياه حقل الارز
تضيء المجرة
□ ايزن

فوق تلك الرقعة الصغيرة
تعرش الفاصولياء
وتمتد حتى تبلغ بابنا ..
ما أبهاها في ضوء القمر
□ ايسا

المحزن في الامر ...
انه تحت خوذة البطل
الصدئة الآن
يجثم جندب
□ باشو

زنبقتان على سطح الماء
تشعان بصفاء
ذهبتين
في البركة المطرزة بالمطر
□ بوسون

الطائر الثرثار
وهو يغني بفرح
يرمق كوخي
بعين ناقد باردة
□ ايسا

أيتها النسمة
البلية الرائعة ...
هكذا جنة بوذا
لا ريب
□ ايسا

نحن نصغي
الى أزيز الجنادب
والى ثرثرة البشر
بآذان شديدة الاختلاف

وانـو

الهاجرة ساكنة متثاقلة •••
بعد الظهر
يحط طائر الدراج
فوق الجسر

بوسون

تحت غلالة قمر الصيف •••
منذا الذي يختال
هناك بالابيض
على الضفة الاخرى ؟

شورا

في كوخي أخشى
كل ما يمكن
ان أغريك بـه ••••
أيتها البعوضات الصغيرة

باشـو

أنا أطوي خيمتي
أيتها الفراشة
المتأنية دائما
الا تستعجلين ؟؟

فاراكوا

آه ••• مجد الصباح
يأتلـق
مع نبته النيلة
فوق جبل ما

بوسون

الحديقة صامته
حيث شجرة الكاميليا
تفتح بياضهـا

اونيتسورا

منذ يوم خلقت
من العصي
والخرق المهملة ••
لا تزال الفزعة العجوز

نيوفو

الآن يطل حلزون البحر الطيّب
برأسين
وذيلين .. لكن الله وحده
يعلم أيٌ لأيٍ ؟

□ كيواري

الليلة التي بعت فيها
بستاني الواطيء
بت أرقـا
من صيحات الضفادع

□ هوكوشي

هيه : لماذا لا تمديد العون
لذبابة الفرس
الطنانـة
لفتح مزلاج ضوء السماء

□ ايسا

يا عصافير الفجر الثرثارة ...
ضيف مدينتنا الكبيرة
أمضي ليلته
وحيدا يرتعش

□ شوهـا

تحت زخات مطر الصيف
المفاجئة ...
الطيور التي تتقاذفها الريح
تتشبث بالعشب

□ بوسون

الراهب يعرض صورة بوذا ..
وعصافير الدوري أيضا
تتأمل ضوء الفجر

□ ايسـا

الخريف

على الشاطئ بعد الجزر
السرطان المسرع
يتمهل قليلا ...
هناك أثر قدم
روفو

محاطة بالماء ...
الفزاعة في الحقل
المغمـور
تقف بامتعاض
شيكي

آه يا كوخي الريفي
أين نقار الخشب الودود؟
ينقر نقرة على الباب
ثم يطير بسرعة
باشـو

في المياه الساكنة
يرى طائر الماء
صورته معكوسة
ماهارا

أغبى أغبياء
جميع المخلوقات الحية
فزاعة عجـوز
عجفـاء
شيكي

ليالي الخريف باردة
الرضيع المهزول
يحشر نفسه في ..
ما أحبه من وليد دافيء
شيكي

خلف الاغصان المتشابكة
حيث يعشعش النسر ..
كرة الشمس الحمراء
تغيب
بوتشو

حينما أشعل المصباح
أري .. لكـل
دميـة
ظلها الخاص بها
شيكي

أيتها الام الراحلة من زمان
في البحر الداكن العميق
أحــدق ....
في البحر الداكن العميق
□ ايســا

أيها السنونو المقدس
تسقسق خارجا
من أنف بوذا العظيم
حيث بنيت عشك
□ ايســا

سأقطع من خيزرانة
ذلك العصفور الثرثار
مقبضــا
لغلاية الشـاي
□ كيكاكو

بكاء ... وأشجار الصفصاف
راكعة هنــا
على الضفــة
تسبل شعرا طويلا أخضر
□ كيوراي

الزرازير المتجمعة
تصيـــح
وهي تنثر حبات التوت
من شجرة الخريف
□ شيكي

أسماكا فضية
تصب .. ؟
انه شلال حي
يتدفق من الشبـكة الى السلة
□ كيكاكو

آه .. أيتها الصفصافة الجرداء
المنحنية فوق الحوض الجاف
المحوط
بجلاميد الشاطيء
□ بوسون

أيتها الدمية الفطساء
لعل أمــك
لم تقم بما يجب
من شد وقرص
□ بوسون

جاثمة على الخيزرانة
المغروسة
عند القبر المحفور حديثا
ذبابة الفرس تنتظر
□ كيتو

على طول الشاطىء ••
طيور الزقزاق
تلهو بلعبة ما
وتبلل أقدامها
□ بوسون

متفلسفاً
يتأمــل
الجبل •••
ذلك الاستاذ الشيخ الضفدع
□ ايســا

بعد غروب الشمس •••
يغسل الفارس
جواده التعب
في بحر الخريف
□ شيكي

في حقل الضباب
لا شيء سوى
لا نهاية منبسطة
وشمس حمراء تشرق
□ شيرو

لان كــوخي
غير مسور ••
ساري قمر الحصاد الطالع
أفضــل
□ شيراد

يا شمس أيلول
الحارة النافذة ••
فوق جلدي أحس
بالنسمة الباردة
□ باشــو

اني أهرم •••
طائر جميــل
يختفي
في عتمة الخريف
□ باشــو

من هذا الواقف
بمعطف من قش ..
يحملق
في نزهتنا الخلوية ؟
□ باشو

أنظر الى ذبابة الفرس
وجهها في الواقع
ليس سوى عينين
□ شيسوكو

يارفيقي الوقواق
خل عينك يقظتين
على كوخي
ريثما أعود
□ ايسا

سماء الصباح حمراء ..
من أجلك ستمطر اليوم
أيتها الحلزونة المحظوظة
كما أظن
□ ايسا

من خلال السكون الشاحب
المنسكب
من ضوء القمر في المساء ..
تنبعث أصوات زيز مفاجئة
□ هاجين

الحديقة بليلة في الصباح ...
وزهراتي شقائق النعمان
البارزة للشمس
يحوطها ضباب البحر
□ سامبو

مع سطوع القمر ...
ورقة أثر ورقة
أثر ورقة
يدب الخريف
□ شيكي

أنا لم أدخل ..
غير اني وقفت
بإجلال ...
على باب معبد أوراق الخريف
□ بوسون

توهج مفاجيء ...
بعد تشرين أول
عاد المطر العاصف
ليحمر الفلفل

□ بوسون

البشر نعرفهم ...
لكن في هذه الايام
حتى الفزاعات
لا تقف مستوية

□ ايســا

ليس سوى أعشاب ذابلة
في قفصك ؟
أيها الجندب الاسير
اليك اعتذاري

□ شوهــا

من مشاعل مراكب الصيد
تتساقط شرارات ..
مسكينة أنت
ياطيور الماق المتجهمة الاسيرة

□ كاكاي

هذا هو مكاني
كوخ من طين
وشجرة مصاحبة
تنثر أوراق الخريف

□ شــورا

من ذلك الكوخ المسكون بالارواح
يتسلل الدخان
تحت المطر ...
في داخلة شخص ما

□ بوسون

برق أيلول يلتمع
وسطح أبيض في الافق
يرتسم عليه ظل التل

□ جوســو

أنظر .. ستة مناقير فاغرة
تنتظر
أمهــا
تحت مطر الخريف البارد

□ ايســا

جو خريفي ساكن ...
هنا وهنـاك
بين التـلال
تنبعث خيوط دخان زرقاء

جيوداي

في كوخ الصياد ...
حيث تختلط الآن
الجنادب النشطة
مع القريدس المجفف

باشو

ـ في ذكرى الموت ـ
يا قمر الخريف الصاعد ...
لن تلقي نورك هذا العام
على طفل شاحب مريض
في حضني

أونيتسورا

من أجل احتفالات الخريف
ذبابات الفرس
التقيـة
ترتدي أيضا ثيابا حمراء

إيسا

أيتها البطات البريات !
أيتها البطات البريات ! أكنتن
أيضا صغيرات
حين غادرتن الوطن ؟

إيسا

في طرق مهجورة
يمشي
هذا الشاعر الوحيد
عابرا عتمة الخريف

باشو

الشتاء

خبريني : من أين تأتي
لسعة البرد
المفاجئة ...
أيتها الفزاعة العليمة باحوال الطقس؟

□ ايسا

وحيدا ، ساهرا
قضيت تلك الليلة المريرة
أشرب الخمر
منذ هطول الثلج

□ باشو

عزلني الثلج...
ومرة أخرى أسند ظهري
على جدار
محطة متخيلة تضج بالناس

□ باشو

عائد الى مسقط رأسي
ومقرّ قبري
في كوخي ترتفع الثلج
خمسة أقدام باردة

□ ايسا

أيها الحطاب في الشتاء
حين يفلح فأسك
أشم رائحة ربيع مفاجيء
في داري

□ بوسون

كذلك أبي
تطلع كثيرا الى
هذه الجبال البيضاء
في الأشتاء الموحشه

□ ايسا

ضعيفة ضعيفة هذه الشمس ..
لاتكاد تستطيع
تغطيـة
الحقول الشتوية المقفرة

□ باكوسوكو

في وحشة الشتاء
وجدت العزاء
بهذه الصورة الصينية العتيقة
لاشجار الصنوبر

□ باشو

ـ الاب المفجوع ـ
عميقا تحت الرماد •••
مشعل الفحم
تحل به القشعريرة
من غصص الدمـــع

□ باشـــو

في الفجر الممطر
ترى أين زحفت
خارج سريري ••• ؟
ثوب نومي ممزق

□ جوسو

في القرية الجبلية •••
تحت هذا الثلج
المهيب الابيض المتساقط
يتراكض جدول

■ شيكي

في قلب الليل المتجمد
أسمع ذاك الفأر
ينقب بهمـــة
في صحون المطبخ القـــذرة

□ بوسون

حتى ضوء مصباحي
يصاب بالسبات
أمام هالة الشتاء
البيضاء المتجمدة

□ باهـــا

ليلة البارحة هطل الثلج ••
واليوم أصبحت السماء
والصنوبر المدثر بالابيض
كوبالت صافيا

□ روكـــا

ليلة مريرة •• لكن
الممارسة الطويلة
للجوع القارس
سمحت لي بالنوم

□ ايزن

غلالات ناعمة من قطع الثلج
تحط فوق هذه
البطات غير الآبهات •••
عالم من الصمت

□ شيكي

الثلج الذائب يتساقط
من على التوتة
الحمراء
ودوريان يمرحان

شيكي

مرة تلو مرة
وأنا في فراشي
أسائل ممرضتي
الآن ، ما سماكة الثلج ؟

شيكي

عند ذلك النزل الكئيب
يظل كلب يعوي .. أترام
مثلي وحيدا
في المطر ؟

باشـو

النجمات جميعها
ترتعش الآن
بالضوء ...
ياله من برد لاذع

تايجي

النجوم الكثيرة
تأتلق من خلال
الظل المرتسم على السماء
لشجرة الصفصاف المتجمدة

تشورا

روح الشتاء الوضاءة ...
ضوء القمر
يرقشه
وقع حبات البرد

حيوداي

هذه الريح الشتائية اللاسعة
ألن تكف عن الهبوب
في السماء
في أواخر ليالي الهلال ؟

كاكاي

الآن عند الفجر
يغمر المـد
بالطحالب
غور ليلنا المتجمد

شيكي

يلتمع تمثال بوذا ...
ولـم لا
وكذلك ألمع غليوني
من أجل المظلة ؟

□ ايسا

في اليوم الماطر
الفزاعات المتقاطر منها الماء
تبـدو
كاناس عاديين

□ سايبي

حين تذكرت
وجوههن المطلية ...
فضت اللفافات
عن دميتيها القديستين

□ بوسون

الطقس دافيء اليوم ...
لكني أظن
اني أشعر بقشعريرة
شمس هذا الشتاء

□ اونيتسورا

أيها الاطفال ، هيا أخرجوا
قعقعة على طول الدرب
أترون . . ؟
آه وابل من اللآلىء

□ باشو

ليلة شتاء جليدية ...
اني أذهب الصقيع
عن ريشة الكتابة
بسني المتبقين

□ بوسون

على سطح البحيرة
فراغ خاو
طويل بارد . . .
وغراب متوحـد

□ شيكي

هاتان الدميتان المتعبتان
في الزاوية
هناك .. آه نعم
انهما زوج وزوجة

□ ايسا

ما أغباها من حبات برد ...
تطـــير
الى مدفئتي
باسرع ما تستطيع

ايســا

في ضوء القمر الجليدي
كتل الصقيع
الابرية الاطراف
تسحق تحت الاقدام

بوسون

خطوط أمطار الشتاء الباردة
أصبحت أفقية
بفضــل
العاصفة المعولة

كيوراي

بعد أن طارت قبعتها
تقف الفزاعة
ذات العنق المتصلب
مهزومة شر هزيمة

بوسون

في ليل الشتاء الجليدي ...
لعل طيور الماء
مثــلي
ترود شاطىء البحيرة

روتسو

سحب ثلجية قاتمة ...
وفوق البحيرة
والارض المنتظرتين
طيور سوداء تنتحب

اوتوكوني

ظل أزرق أرتج
بوابة قلعة إيدو
تحت ضوء القمر المتجمد

كيكاكو

جيراني يكرهونني ..
أسمعهم يخبطون
ويقرقعون بأوانيهم
في ليل الصقيع

بوسون

أمام بوذا
حتى العصافير الطيبة
تحني رؤوسها
آباء وأمهات وأطفالا
□ ايسا

صوت المنشار الاجش •••
موسيقى
الفاقة الباردة
في منتصف ليل الشتاء
□ بوسون

احتفالات نهاية العام •••
وأنا لاأزال في ثياب الحجاج
هل علي أن أتابع السير
في طريقي اللانهائي ؟
□ باشو

بعد ان مات باشو العزيز
أي صانع شعر
يجرؤ أن يكتب :
« احتفالات نهاية العام » ؟
□ بوسون

ـ أغنية للموت ـ
لقد منحت
خريفين زيادة
عما يعيش الانسان المتوسط
يا قمر الحصاد
□ سايكاكو

ـ أغنية للموت ـ
في آخر الدرب الطويل
حين أسقط
وأعجز عن النهوض •••
ساغرس في مسكبة الزهور
□ شورا

*انجزت ترجمة هذه المجموعة في حزيران ١٩٧٩

□ □ □

من الأدب الشركسي المعاصر

● ترجمة : د. عادل عبد السلام

الشاعر علي شوجن تسوكو

من رواد الأدب الشركسي المعاصر الاوائل ، ولد سنة ١٩٠٠ في أسرة فقيرة ، تعيش في قرية (كوش مزقواي) في القفقاس الاوسط . ولقد دفعت علائم الذكاء والنبوغ المبكر لديه عيون جده وعمه عليه، فلقنه الاول المرويات والاخبار القديمة والعادات والتقاليد، وعمل عمه على دفعه للدراسة في مدرسة القرية ومن ثم في المدرسة الدينيـة في مدينـة (باخسان) حيث درس العلوم الاسلامية واللغـة العربية الـى جانب الشركسية والروسية وبعض العلوم العصرية .

تابع علي شوجن تسوكو دراسته في مدرسة المعلمين وأتقن اللغتين التركية والفرنسية .

ولقد عانى الشاعر علي شوجن تسوكو من الفقر والحرمان أثناء دراسته في استمبول ، ولقد كانت معاناته هذه المحرك الأول لبداية قوله الشعر فكانت قصيدته الرائعة (أماه) ، التي نظمها في تركيا بين سنتي ١٩١٧ و ١٩١٩ عندما عاد الى موطنه في بلاد الشركس . نشرت أعماله الادبية في دواوين ومجموعات شعرية عدة مرات باللغتين الشركسية والروسية ، آخرها سنة ١٩٧٥ .

يتميز شعر شوجن تسوكو بالعمق والعاطفة والألم ، وتعكس قصائده ماقاساه وعاناه من شدة وحرمان وجوع ، كما تبرز الصراع الطبقي الاجتماعي في مجتمع مابعد الحرب العالمية الاولى ، وماتعرض له من هزات وتطور • اتناج شاعرنا غزير رغم قصر الفترة التي عاشها •

ـ امــاه ـ

هــل تدرين بابنك الصغير
مفكراً، يائساً على شاطىء البحر ؟
دون أم وأب في البلد الغريب[1]
يصارع للوصول والعودة الى الجبال الشامخة ؟[2]

إنني هنا ، لايمر بي يــوم
يمكنني فيه رؤية أوشحه مافه[3]
ولاتوجد هنــا أم
ياأماه ، تربت بيدها على رأسي مثلك ••

انها مدينة •••• أصلها البحــر
تزحف اليها السفن مزمجرة ،

(١) يقصد مدينة أستمبول •

(٢) جبــال القفقاس •

(٣) الاسم الشركسي لجبل البروز أعلى قمة في القفقاس •

يخرجون منها البضائع بالسواعد ،
ويمسحون عرق وجوههم بالطرابيش المتسخة .

انهم هؤلاء الحمالين ، ياأماه
هم الذين يعطفون علي اليوم ،
« لاأحد لهذا التلميذ الصغير » ،
يقولون ذلك وهم يربتون على ظهري .
إنْ أكف أمثال هؤلاء ، وإنْ كانت خشنة
فإنها بملامستها رأسي تصبح ناعمة الملمس ،
وإن كانت يدي لاتطال صدر الأم الحنون ،
فإن هؤلاء يمسكون بيدي للخروج من عهد المهد والطفولة .

أماه ! أما كان الاحسن لو لم تلديني .
ولم أجلب لك الاسى والاحزان ،
وقبل أن يصبح ابنك الصغير مهملا مرميا
ليتــه لم يخلــق ، أو ليتــه مــات

ماذا ارتكبت بحقــك يــا الهي
لتقــذف بي على الارض وحيدا عاريا ؟
وأمي الحنــون ، دون سبب
لم خلقتها تــذرف الدمــع ؟

أيـن العـدل مـن كل هـذا
أيـن الشعور بألم وبكـاء الطفولـة ،
وإذا نام ذلـك الطفـل بـين الاخشاب
لم جُبِلِ ممتلؤ البطون على الضحك من منظره ؟

لاتخافي ولاتحزني ياأمي الذهبية
فان القبضات الخشنة ستجعل من ابنك رجلاً
ويعود اليك بعد زمن قصـير
وتبسطين رداء لوادي باخسان[٤]

فوست بلقـر

هناك أغنية واسعة الانتشار في كثير مـن البلدان الاوروبيـة عنوانها (لاتنتظر ليالي الربيع) نالت الجائزة الاولى لمسابقة الأغنية في بودابست ، قلائل أولئك العارفون بملحنها أو واضع كلماتها . إنها واحدة من قصائـد الشاعرة الشركسية فوست بلقر لحنها الموسيقار الهنغاري يوجيف بولينكاس.

ولدت الشاعرة الشركسية المعاصرة فوست ابنة عزيز بلقر ، سنة ١٩٣٢ في قرية صغيرة تدعى كشبك في بلاد الشركس الشرقية ، لأسرة فقيرة تعمل

(٤) اسم الوادي الذي ترعرع فيه الشاعر .

بالزراعة والرعي . وقد ظهرت موهبتها الادبية في فن الشعر خاصة أثناء عملها في التعليم .

بدأت أعمال فوست الادبية بالظهور منذ سنة ١٩٤٦ ، أي وهي في سن الرابعة عشر ، وذلك على صفحات الجرائد المحلية ثم في المجلات الادبية الشركسية ، وأخذت شهرتها بالاتساع وشعرها بالانتشار بسرعة مما دعا الى نشر أشعار كثيرة لها في المجلات والصحف الادبية الروسية مترجمة عن الشركسية .

جمعت أشعار وقصائد بلقر في دواوين ومجموعات شعرية تحت أسماء عديدة ظهرت في فترات متفرقة ، نذكر منها مجموعة أشعار (أطرز السماء) عام ١٩٦٧ و (أشعة الشمس ، اصبع آلتي الموسيقية) عام ١٩٧٠ . وغيرها من مجموعات أخرى .

تتميز قصائد وأعمال الشاعرة فوست بلقر بالدفء والعاطفة الجياشة ، صورها وكلماتها مغلفة بالحب لكل ماهو انساني، وتطغى عليها عاطفتها القومية والوطنية في كثير من أعمالها ، وبشكل خاص في قصائدها الموجهة الى أبناء قومها في بلدان الشرق الاوسط ...

الى امي

(لفوست بلقر)

ماقاساه قلبك في العمر المرير

نام على وجهك منطبعاً تجاعيد .

ولم تحظَ بالسعادة الانثوية ،
عندما خطوتِ الى عش الزوجية .

فعندما كنت تطلين من النافذة الامامية
كنت ترين من اتخذته رفيق عمرك في فناء الدار .
وإن تطرق الشك اليه ، واتقدت النار في قلبه
كان يلوح بعصا الراعي في وجهك .

ودون أن ترفعي رأسك صيفاً وشتاء
أمضيت عمرك صنيعة عنصر الرجال .
والاسى العميق ، واليأس المظلم
جلبا الشيب المبكر الى شعرك الاسود .

وعندما كنت تهزين المهد ، عوضاً عن الغناء المرح
كنت أغفو على ترديدك للمراثي
ولما كبرتُ وأخذت أرقد عند قدميكِ
عشتُ نفس المراثي .

ياأمي الذهبية ، إن مرثيتكِ ، اليــوم
قد استبدلناها بأغنية السعادة ،
ومع إغفاءة ابنتي في المهد الحريري الابيض ، اليوم
مهدهدة أياها ، تذكرتــك .

هــل من حرج أن يتذكر القلب الأسى والألم ؟
فأنت جدلت وصنعت سعادة الحاضر ،
فالحياة الجديدة ، دموعك المالحة ،
مسحتها برفــق .... بمنديــل أبيض .

حميــد برتــار

ولد حميد بن يحيى برتار في التاسع من تموز ١٩٣١ ، في قرية فارانوقة الشركسية في القفقاس الغربي . وأنهى دراسته في مدارس بلاد الشركس الغربية ، أثناء الحرب العالمية الثانية التي عانت منطقته من ويلاتها ومآسيها ، وبعدها . تابع دراسته في جامعة موسكو في كلية الصحافة حيث تخرج منها عام ١٩٥٨ . كما حصل على درجة الدكتوراة في التاريخ من نفس الجامعــه سنة ١٩٧٠ .

عمل حميد برتار مستشاراً للاداب الشركسية في جامعة موسكو مــدة سنتين ، كما عمل محرراً أدبياً لصحيفة البرافدا الاديغية (الشركسية) ، ويعمل حالياً في صحيفة الكوبان السوفيتي ، وعضواً في معهد البحوث العلمية فــي مقاطعة الاديغي الشركسية . ولقد بدأ اسم حميد يلمع في حقل الادب المنظوم مبكراً ، عندما أخذت الصحف والمجلات المحلية تنشر له قصائده وأشعاره منذ عام ١٩٤٩ ، واحتل مكانته الشعرية الادبية الرفيعة عبر السنوات التالية كشاعر مبرز مبدع لا باللغة الشركسية فحسب ، بل وباللغة الروسية أيضاً .

ظهرت أول مجموعة شعرية له سنة ١٩٥٧وهي (الفجر) أعقبها ديوان (حديث الربيع) سنة ١٩٦٠ ، ثم مسرحياته التي صدرت تحت عنوان (مسرحيات) وأشعاره الجديدة في مجموعة (شعاع الشمس) سنة ١٩٦٥ • كما ترجم كتابه (اسلامي) الى الروسية نشر في نفس السنة • أما آخر أعماله الشعرية التي وقعت بين أيدينا فهي مجموعة (أغنية المهد) التي نشرت سنة ١٩٧٥ ، ومجموعة (الحب الوحيد) التي نشرت سنة ١٩٧٧ • ولقد نشرت أعمال حميد برتار من أشعار ومقالات ومسرحيات أخرى في كثير من الصحف والمجلات الشركسية والروسية ، كما تم تلحين عدد من قصائده المغناة في القفقاس وخارجه ، كما قام الى جانب ذلك كله بترجمة أعمال اوسترافسكي وغيره الى الشركسية ، ومعظمها مسرحيات مثلث على مسارح القفقاس •

عالج شاعرنا موضوعات عديدة ، لكن اهتماماته الرئيسية منصبة على العلاقات الانسانية ، يمجد من خلالها الخير والسعادة والحب والصداقة • وتعكس أشعاره تفاؤلا بمستقبل مشرق • كما تعبر عن نفس رقيقة جياشة بالعاطفة الصادقة ، والاحترام الذي يصل درجة التقديس للصدق والرجولة والبطولة • وتصور لنا قصائد حميد تعلقه وعبادته لارض وطنه وحبه لبني قومه ، والتطور والتقدم الذين قطعاهما في الحياة •

ويعد حميد أحد الشعراء الشركس الذين أولوا عناية لموضوع (الام) أما قصيدة (أحزان الام) التالية ، فلقد ترجمناها من مجموعته (أغنية المهد)•

أحزان الأم

عندما ولــد ابني ، الحياة السعيدة
كنت أقدس أمــل تدليلها لــه
موجهة في جهة القبله ، الهي العادل
توسلت اليه ليرعــاه ويحميه

وعندما نزل النهر ليسبح فيه ، الماء الهادر
رجوته مستعطفة ، أن يبعد أذاه عنه .
لم يغرقه الماء ، عجباً
فهم الماء الجاري استعطافي

وعندما أرسلته الى الغابة ، أن لايتيه فيها ،
وأن لايلقاه الذئب ، رجوت ودعوت .
لم يته في الغابــة ، عجباً ،
أحست الغابة بلهفتي

لكنه عندما بلغ مبلغ الرجال ، وخرج من داري
بــرز له العدو معترضاً طريقه
ووجه الى صدره تماماً
البندقية وشد على زنادها ...

لم يسمع الانسان رجائي ولهفتي
لم يكترث العدو بتوسلي
ياالهي الحبيب ، يذكرون وجودك
فلاتدع تلك الرصاصة الشريرة تنطلق من البندقية .

لم يكترث الانسان بلهفتي
ولم يخترق توسلي السماء
وصوت الطلقة التي جرحت قلب الأم جرحاً لن يلتئم
سمعته في القريــة .

فن التفكير

● ج . والاس ● ترجمة : عبدالكريم ناصيف

في هذا المقال سأطرح السؤال التالي : في أية مرحلة من مراحل عليـة التفكير يزج المفكر بجهده الواعي والارادي الخاص بصفته ؟ هنا ، سنجد في الحال الصعوبة التالية وهي : أنه مالم نتمكن من التعرف على الحدث النفسي وتمييزه عن الأحداث الاخرى لانستطيع زج الجهـد الواعي للتأثير مباشرة عليه ، خاصة وأن حياتنا الذهنية عبارة عن تيار من الاحداث النفسية المختلطة التي تتأثر ببعضها البعض ، ويمكن لاي منها ، في أية لحظة من اللحظات ، أن يكون بداية لحدث أو استمرارا أو نهاية له . ولذا يصعب الى حد كبير تمييزها عن بعضها البعض .

على أنه يمكننا ، الى حد ما ، تفادي هذه الصعوبة اذا ماأخذنا انجازا مفردا من انجازات التفكير ـ صياغة مبدأ جديد ، ابتكار شيء ما أو التعبير الشعري عن فكرة جديدة . ثم تساءلنا عن كيفية تحقيقه . فعندئذ يمكننـا تقسيم العملية ، المتصلة بصورة عامة ، الى بداية ووسط ونهاية . لقد وصف هلمهولتز ، الفيزيائي الالماني العظيم ، مثلا ، وهو يلقي كلمة في الاحتفال بعيد

ميلاده السبعين عام ١٨٩١ الطريقة التي خطرت له بها أهم أفكاره الجديدة ، فقال : أنه بعد أن يبحث بحثاً طويلاً في المشكلة في كافة الاتجاهات ••• تخطر له بصورة غير متوقعة ، ودونما جهد ، أفكار سعيدة وكأنها الوحي • وبقدر مايتعلق الأمر بي ، فانها لم تكن تخطر لي أبدا حين يكون ذهني متعبا ،أو عندما أكون على طاولة عملي ••• بل كانت ترد أكثر ماترد وأنا أصعد على مهل ، الربى المكسوة بالغابات في يوم مشمس • ان هلمهولتز هنا يبين لنا ثلاث مراحل في تشكل فكرة جديدة، سأدعو أولاها من حيث الزمن بـ «التحضير» وهي المرحلة التي « تبحث خلالها المسألة ••• في كافة الاتجاهات » • أما الثانية فهي المرحلة التي يجري فيها التفكير بالمسألة لاشعوريا وسأسميها مرحلة التخمر أو الحضانة • والمرحلة الثالثة تتكون من تجلي « الفكرة السعيدة » جنباً الى جنب مع الأحداث النفسية التي تسبق مباشرة وترافق ذلك التجلي ، وسأطلق على هذه المرحلة اسم « الاشراق » •

ثم أضيف مرحلة رابعة لايذكرها هلمهولتز هنا ، هي مرحلة التحقق • (•••••) ان هذه المراحل الأربع المختلفة تتشابك في تيار التفكير اليومي وتتداخل باستمرار مع بعضها البعض ونحن تتفحص ونستكشف مختلف المسائل فالاقتصادي ، وهو يقرأ كتاباً في الاقتصاد ، وعالم التشريح وهو يراقب تجربة، ورجل الأعمال وهو يتصفح رسائله الصباحية ، قد يكون في مرحلة « التخمر » بالنسبة لمسألة من المسائل كان قد فكر بها قبل بضعة أيام ، وفي مرحلة جمع المعارف والمعلومات « تحضيراً » لمسألة ثانية ، وفي مرحلة « التحقق » من النتيجة

التي توصل لها بالنسبة لمسألة ثالثة بل ان الذهن ، حتى أثناء سبره لمسألة بعينها ، قد يكون حاضنا ، باللاشعور ، لجانب من جوانبها ، في حين يستخدم العقل الواعي لتحضير جانب آخر أو التحقق من جانب ثالث • وينبغي دائماً التذكر أن جانباً كبيراً من التفكير الهام الذي يقوم به شاعر يتفحص ذكرياته، أو رجل يحاول أن يرى بوضوح ارتباطه العاطفي ببلده أو حزبه ، يماثل عملية تأليف موسيقي من حيث أن المراحل المفضية للنجاح لاتنطبق كثيراً على مخطط « المسألة والحل » • مع ذلك ، وحتى عندما يأخذ النجاح في التفكير معنى إبداع شيء يشعر الانسان بأنه جميل وصحيح بدلا من حل مسألة محددة ، فإن المراحل الاربع من تحضير وتخمر وإشراق وتحقق من النتيجة النهائية يمكن ، بشكل عام ، أن تتميز عن بعضها البعض •

وإذا ما قبلنا هذا التحليل ، نغدو في وضع يحتم علينا أن نسأل الى أية درجة وبأية وسيلة يمكننا أن نسخّر الجهد المتعمد الارادي والسلوك الذي ينشأ عنه ، للعمل في كل مرحلة من المراحل الاربع • لكنني في هذا المقال لن أتناول بالتفصيل مرحلة التحضير ، فالناس يعرفون منذ آلاف السنين أن الجهد الارادي وما ينتج عنه من سلوك يمكن أن يوظف لتحسين عمليات التفكير لدى الشبان من الناس • وقد صاغوا لهذا الغرض فناً معقداً وقائماً بذاته هو فن التربية والتعليم • وبنتيجة هذا الفن يمكن للانسان المتعلم أن « يركز ذهنه » على موضوع ينتقيه ، كما « يصرف ذهنه » بطريقة لا يستطيعها الانسان غير المتعلم • كذلك يكتسب المتعلم بفضل المشاهدة والحفظ ، جملة

من المعطيات والكلمات التي يمكنه تذكرها والتي توفر له في لحظة التداعي الحاسمة ، نطاقاً أرحب ومجالا أوسع ، إضافة الى اكتسابه عددا من تلك الخطوط والمسارات التي يتعود اتباعها في حالات التداعي والتي تشكل «قلم تفكير» ، «كالسياسة الفرنسية» مثلا ، أو «الفلسفة المدرسية» أو «التطور البيولوجي» وتقدم نفسها كوحدات مستقلة في عملية التفكير .

كذلك فإن المتعلم يعلم ويستطيع ، إبان مرحلة التحضير ، أن يطبق ، سلوكياً وارادياً ، الاحكام والقواعد التي يوجه وفقها اتباعه باتجاه العناصر المتسلسلة للمسألة . وقد أشار هوبز لهذه الحقيقة حين وصف «التفكير المنظم» في كتابة «ليفياثان» وأجرى مقارنة بينه وبين ذلك «الانطلاق الحر للعقل» الذي يحدث حين تكون عملية التفكير غير موجهة . فالتفكير المنظم كما يقول هوبز هو «البحث» . مثال على ذلك ، يبحث الانسان أحياناً عن شيء أضاعه على غير هدى .. وأحياناً يعرف مكاناً محدداً ، عليه أن يبحث ضمن دائرته حيث تنطلق أفكاره من هناك الى كل الانحاء . وذلك على غرار مايعمله الانسان وهو يمسح غرفة من الغرف بحثاً عن جوهرة ، أو كلب الصيد الذي يطوف حقلا ويظل يتجول فيه الى أن يكتشف رائحة ، أو الشاعر الذي يقلّب الابجدية كلها كي يبدأ قافية شعرية « فكلب الصيد قد لايستطيع ، بدماغ الانسان المتعلم ، أن يشم رائحة حجل في مكان بعيد من الحقل بوساطة العقل الارادي المباشر . لكنه يستطيع أن « ينطلق » في الحقل هكذا بفضل الترتيب الارادي الاولي الذي يمكن أن تعطى فيه أقل عملية شم إرادية الفرصة التامة لان تنجح .

من ضمن هذه القواعد الخاصة « بالتنظيم » الاولي لتفكيرنا هناك فن المنطق التقليدي بكامله ، والصيغ الرياضية التي هي الناظم المنطقي للعلوم التجريبية الحديثة ، وطرائق الفحص المتواصل والمنهجي للظواهر الحالية أو المسجلة التي تشكل أساس علم الفلك والاجتماع والعلوم الاخرى التي تعتمد على المشاهدة • كما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا الاستخدام الارادي للطرائق الاختيار الطوعي لوضع المسألة Quargabe • إذ من غير المحتمل أن يقدم لنا عقلنا جواباً واضحاً على أية مسألة من المسائل ما لم نطرح عليه سؤالا محدداً ، ومن المحتمل أكثر أن ندرك مغزى أي جزء جديد لدليل من الأدلة ، أو نلحظ ترابطاً جديدا للافكار ، إذا ماصغنا مفهوماً محدداً عن قضية ينبغي إثباتها أو نقضها • (•••••) ورغم أنني افترضت ، بغية المزيد من الوضوح ، أن المفكر يحضّر نفسه لحل مسألة مفردة ، الا أنه غالباً ما تمثل في ذهنه (وخاصة اذا كان يعمل في مجال العلوم الاجتماعية بموادها البالغة التعقيد) عدة مسائل قريبة من بعضها البعض ، جرى أو يجري بالنسبة لها كلها فعل التحضير ، كما يمكن أن يظهر ، في مرحلة الاشراق ، حل أي منها، مقدماً نفسه على حين غرة تماماً •

أما المرحلة الرابعة ، وهي مرحلة التحقق فانها تشابه الى حد بعيد المرحلة الأولى أي مرحلة التحضير • فهي تتم عادة ، كما أشار الى ذلك بوانكاريه ، بوعي الانسان الكامل ، أي أن الانسان « يتحقق » بوساطة العمل الارادي المتعمد ، مطبقاً سلسلة من القواعد والأحكام الرياضية والمنطقية ، تشبه تلك التي يستخدمها في عملية ضبط التحضير والتحكم به •

تبقى هنالك المرحلتان الثانية والثالثة ، أي مرحلة التخمر ومرحلة الاشراق ، فمرحلة التخمر تغطي شيئين مختلفين ، الأول منهما هو أننا أثناء مرحلة التخمر ، لانفكر بصورة ارادية متعمدة في مسألة بعينها وهذه حقيقة سلبية ، أما الشيء الثاني فهو أن سلسلة من الاحداث الذهنية اللاشعورية واللاإرادية (أو ما قبل الشعورية وما قبل الارادية) يمكن أن تجري خلال تلك الفترة وهذه حقيقة إيجابية . لكنني هنا سأناقش الحقيقة الأولى المتعلقة بمرحلة التخمر تاركاً الحقيقة الثانية ـ المتعلقة بالتفكير الباطني خلال مرحلة التخمر وعلاقة ذلك بالاشراق ـ لكي أناقشها بصورة أكمل عند التصدي لمرحلة الاشراق . فالامتناع الارادي عن التفكير المتعمد بأية مسألة بعينها ، يمكن هو ذاته أن يتخذ شكلين : الامتناع الذي تنقضي مرحلته في عمل ذهني مكرس لمسائل أخرى ، أو امتناع استرخاء وتخلص من كل عمل ذهني واع. يعتبر النوع الاول من التخمر هو النوع الأفضل لأنه يوفر علينا الوقت . ويمكننا ، على الأغلب أن نحصل على نتيجة أحسن ،من خلال البدء بمعالجة عدة مشكلات متسلسلة ثم تركها بمحض إرادتنا دون إكمالها من أجل الالتفات الى مسائل أخرى ، وعدم إنهاء العمل في كل مسألة على حدة . ولقد أخبرني عالم نفس أكاديمي مشهور ، كان أيضاً واعظاً دينياً ، أنه اكتشف ، نتيجة الخبرة والممارسة ، أن موعظته التي يلقيها يوم الاحد ، تخرج ، اذا كان قد حدد المشكلة التي سيتكلم عنها منذ يوم الاثنين ، أفضل بكثير مما لو حددها في وقت لاحق من أيام الاسبوع رغم أنه قد يخصص لها العدد ذاته من ساعات الجهد الارادي في كل حالة من الحالتين . وعلى مايبدو فان من تقاليد المحامين

المتمرسين أن يبتعدوا عن النظر بأية إضبارة من الأضابير حتى آخر لحظة ممكنة لمعالجتها ، وأن ينسوا المسألة برمتها بأسرع ما يمكن بعد معالجتها .

إن هذه الحقيقة قد تساعد على تفسير بعض الافتقار للعمق الذي غالباً ما يمكن ملاحظته في رجل القانون النموذجي ، والذي يمكن أن يُعزى لما يبذله من تفكير واع لم يتوسع ، ولم يغنه تفكير ماقبل الوعي إغناء كافيا .

لكن بالنسبة لأشكال التفكير الابداعي الأكثر صعوبة ، كالقيام باكتشاف علمي مثلا أو كتابة قصيدة أو مسرحية أوصياغة قرار سياسي هام ، فليس من المستحسن أن يكون هناك فاصل زمني خالٍ من التفكير الواعي بالمسألة المعنية ذاتها وحسب ، بل يستحسن أيضا أن ينقضي هذا الفاصل بصورة لاتسمح لأي شيء أن يعترض الأنطلاق الحر لعمليات الذهن اللاشعورية أو الشعورية الى حد ما . ففي هذه الحالات ينبغي أن تتضمن مرحلة الحضانة أو التخمر مقداراً كبيراً من الاسترخاء الذهني الفعلي . ولعله أمر مثير فعلا ، من وجهة النظر هذه ، أن تتفحص سير حياة مائتي شخص من المفكرين والكتاب المبدعين . فعلى سبيل المثال اكتشف إ.ر. والاس بالمصادفة نظرية التطور بالانتقاء الطبيعي وهو على سريره يصارع الحمى في سفينة تمخر عباب البحر ، كما كان داروين مضطراً بسبب اعتلال صحته لأن يقضي الجزء الاكبر من ساعات يقظته في حالة استرخاء ذهني وجسمي ، وفي بعض الأحيان يمكن لمفكر من المفكرين أن يحصل على كفايته من الاسترخاء بفضل تخلصه من البطالة التي كان يكافح ضدها عبثاً .لكن ربما كان ما يحسبه بطالة في أكثر

الأحيان هو ، بالحقيقة ، ذلك التلهف والتوق الملحّ لحلم يقظة مكثف ومستمر من النوع ذاته الذي يصفه أنتوني ترولوب أثناء تصويره لطفولته .

ولعل إحدى النتائج لدراسة بيوغرافية (سير حياة) كهذه ستكون صياغة بضعة أحكام بالنسبة للعلاقة بين العمل الفكري المبدع وفضيلة المثابرة . فهناك آلاف من « العباقرة » المتبطلين الذين لا بد لهم أن يتعلموا أنه لا يمكن لأي عمل فكري عظيم أن يتم ، دون توفر درجة من درجات المثابرة والدأب في مرحلتي التحضير والتحقق اللتين لا يمتلك كثيرون منهم أي مفهوم عنهما ، كما أن عادة الكسل قد تكون ذات آثار مفجعة بالنسبة للمفكر المحترف أكثر حتى مما هي بالنسبة لرجل الأعمال . لكن ، قد يكون من الضروري القول لمفكر ذي صحة جيدة وفكر خصب بالفطرة ، أن المثابرة المطلقة بالنسبة له ، كما كانت بالنسبة لترولوب في سنيه الأخيرة ، هي أسوأ اغراءات الشيطان . لقد كان الكاردينال ماينينغ رجلا شديد المثابرة والدأب ، وكان لانقطاع مثابرته ، كرئيس شمامسة انجليكاني ، أثناء مرضه عام ١٨٤٧ دور هام ،على أية حال ، في تاريخ المذهب الانجليكاني .

لقد تساءلنا حتى هذه النقطة من المقالة الى أي حد يمكننا أن نحسن من طرائق تفكيرنا في هذه المراحل ـ التحضير ، الحضانة (بمعناها السلبي أي الابتعاد عن التفكير الارادي بمسألة بعينها) . ومن ثم التحقق ـ وهي المراحل التي تملك ارادتنا الواعية عليها سيطرة كاملة نسبياً . أما الآن فأناقش المسألة الأصعب بكثير وهي : الى أي حد يمكن لارادتنا أن تؤثر على المرحلة التي

تتميز بأن امكانية التحكم بها والسيطرة عليها أقل ، أي مرحلة الاشراق ؟ لقد تكلم كل من هلمهولتز وبوانكاريه عن أن الأفكار الجديدة كانت تتجلى لهما بشكل عفوي وغير متوقع . واذا ما عرّفنا مرحلة الاشراق بأنها هـذه « الومضة » العفوية التلقائية ، يتضح لنا مباشرة أنه ليس بوسعنا التأثير عليها بجهد إرادي مباشر ، نظراً لأننا لا نستطيع زج إرادتنا وتجنيدها للعمل الا في الأحداث النفسية التي تدوم فترة زمنية معقولة .

من جهة أخرى ، فإن هذه « الومضة » النهائية أو هذه « الطلقة » هي ذروة سلسلة ناجحة من عمليات التداعي التي قد تدوم فترة لا بأس بها . وربما تسبقها سلسلة من المحاولات التجريبية غير الناجحة . وللعلم فان سلسلة التداعيات غير الناجحة .... قد تدوم فترات تتراوح بين بضع ثوان وبضع ساعات . وقد كان يعتقد هـ . بوانكارية ، الذي وصف السلاسل التجريبية غير الناجحة بأنها في حالة مو لاشعورية بصورة كاملة تقريباً ، بأن هذه السلاسل كانت تشغل حيزاً كبيرا ن مرحلة الحضانة بكاملها . (.....)

لكن اذا ما أردنا التحكم بعملية سيكولوجية ، فانه يغدو من المحتّم ن لا تدوم تلك العملية فترة زمنية كبيرة وحسب ، بل لا بدّ أيضاً ان يشعر لمفكر بهذه العملية وأن يعي ، على الأقل ، أن شيئاً مايحدث له . عند هـذه لنقطة تبين الأدلة ، على ما يبدو ، أن كلا من سلاسل التداعي غير الناجحة لتي قد تؤدي الى « ومضة » النجاح ، وكذلك السلسلة النهائية الناجحة

تكون ،عادة ، إما لا شعورية أو أنها (وذلك طبقاً لـ « ارتفاعات» و«انخفاضات الوعي وحسبما يبدو أنه اقتراب من النجاح أو تراجع عنه) تجري في « أطراف » أو « هامش » الوعي الذي يحيط بـ « بؤرة الوعي إحاطة «الهالة» بقرص الشمس المضيء • وهذا « الوعي الهامشي » قد يستمر حتى لحظة « الوميض » فقط ، كما قد يرافقها ، بل ربما يستمر بعدها في بعض الحالات لكن ، مثلما يصعب علينا أن نتطلع الى هالة الشمس ، ان لم يكن يخفي القرص كسوف كامل كذلك يصعب علينا كثيراً أن نراقب « وعينا الهامشي » ونرصده في لحظة الاشراق الكامل ، أو أن نتذكر « الهامش » الذي سبق تلك اللحظة بعد أن يحدث الاشراق • فنحن ، كما قال وليم جيمس « عندما نصل الى النتيجة ، ننسى دائماً معظم المراحل التي سبقت وصولنا إليها » •

وإنني لأجد من المناسب هنا أن أستخدم مصطلح « الحميمية » لوصف تلك اللحظة من لحظات الاشراق ، عندما يكون وعينا الهامشي لسلسلة التداعي في حالة تصاعد يدل على أن ومضة النجاح ، ذات الصفة الشعورية التامة ، آتية • واذا مادامت هذه « الحميمية فترة زمنية معقولة ، وكانت إما شعورية الى حد كاف أو يمكن بتركيز الانتباه أن تصبح هكذا ، فإن من الواضح أنه يغدو بالامكان زج إرادتنا للعمل في تلك اللحظة • اذ يمكننا ، على الأقل ، أن نحاول كبت أو إطالة أو تغيير اتجاه النشاط الدماغي الذي تدلنا الحميمية على أنه جارٍ • واذا ما رافقت الحميمية سلسلة متصاعدة لتداعٍ يقبله الدماغ ،

كأن يسره مثلا أو يبهجه انما لايمكن دون تركيز الانتباه ، المضي بشكل آلي الى « ومضة » النجاح الواعي ، فإنه يظل بامكاننا أن نحاول التمسك بسلسلة كهذه بانتظار الفرصة التي قد تأتي عقب ذلك وتنجح بها .

عن كتاب الابداع « Creativity » ، الناشر ب . ي . فرنون . بنجوين .

صدر حديثاً

عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

طائر النار

رواية — قمر كيلاني

لوكريتسيا تلهو بالدّمية

قصة ايطالية

● جوزيبو بيرباتشنكو ● ترجمة : محمود لوله

مرت الراهبة عبر المهجع ، المصباح الصغير يشع نورا شاحبا فوق رسم العذراء ، على ذلك الضوء البعيد الواهن ، مرت الراهبة بـين صفي الاسرة ، تستنشق الرائحة الكثيفة التي تنبعث عن الطفلات النائمات في ليلة من ليالي الصيف الحارة ، دون أن تلاحظ أن أحد الاسرة ، بالرغم من تبعثره كما لو أن أحدا ينام فيه ، كان خاليا ، رقمه /١٤/ ، فلو أنها لاحظت ذلك في الصباح لكانت فتشت أرجاء الدار الواسعة بحثا عن طفلة كانت تشغله اسمها ناتاليا ، ولأدركت فيما بعد أن الطفلة قد هربت ، ولأخبرت الشرطة بالحادث، لكن عقارب الساعة كانت تشير الى العاشرة ليلا ، فالوقت تأخر ، والنعاس تملكها ،وعلى هذا الضوء الواهن لم تتبين خلو السرير من شاغلته ،

في مثل هذا الجو الحار يتجول الرجال في الشوارع بقمصانهم فقط ، بينما يحملون السترة على أذرعهم ، مر أحدهـم بالقرب مـن الفتاتين اللتين كادتا الوصول الى منعطف الطريق ، وهي زاويـة مظلمة ، فانتبـه اليهما في اللحظة الاخيرة حين بادرته احداهما بالتحية : « مساء الخير » ،

التفت الرجل نحوهما التفاتة سريعة ، ودون أن يجيب تابع سيره . « تقترب الساعة من الثانية » ، قالت الفتاة ذاتها . كان قد أصبح من النادر أن يمر أحد في الشارع ، والمقهى الذي على زاوية الطريق كان قد أغلق أبوابه . قبل هذا وقفت سيارة أمام الفتاتين ، الا أن من فيها كان ثملا للغاية، أراد منهما أن ترافقاه الى البيت ، فأبتا لما قد ينجم عن ذلك من مخاطر . « ثمةمن هو قادم نحونا » قالت الفتاة الثانية . فقد كان ثمة شاب على الرصيف المقابل يعبر الشارع . اتجهت الفتاتان نحوه بخطوات مسترخية ، احداهما تؤرجح محفظتها اذ أمسكتها بالحمالة . توقف الفتى أمامها . «أهلابالمهندس» قالت له التي كانت ترتدي ثوبا أخضر اللون وذات شعر أحمر مسرحا بعبثية، أشعثا ، كما لو كان شعرا مستعارا . بينما كان الفتى يتأبط ملفا كبيرا من الورق . قال والسيكارة بين شفتيه : « كبريتا » .

الفتاة الاخرى ذات الثوب الاسود الذي تنتشر عليه ورود كبيرة برتقالية اللون ، والتنورة الواسعة بفتحة عريضة من الامام ، تناولت الولاعةمن محفظتها وأشعلت له السيكارة .

سألته الفتاة ذات الثوب الاخضر : « أينا تفضل ، الشقراء أم الحمراء » نظر الفتى اليهما وأرسل من أنفه سحابة من الدخان ثم قال : « الحمراء »، لكن نقودي قليلة .. « باستمرار كلكم شحيحون » ، قالت الاخرى وهي ذات شقار حنطي أو أفتح قليلا تشوبه بعض الانعكاسات الخضراء الغريبة .

ابتسم الفتى وتمتم بعض الكلمات والسيجارة في فمه فاقتادته الحمراء

من ذراعه وانطلقت به قائلة : « انـه لمبلغ زهيد لكني أعجبت بـك كثيرا ، يعجبني النحفاء المصبيون من أمثالك » •

بقيت الاخرى وحدها • فتحت المحفظة ، وهي تنظر اليهما يبتعدان ، ثم نظرت الى الساعة دون حزام التي هي داخل المحفظة ، لقد تجاوزت الثانية• أمسكت بعلبة السجائر وأشعلت منها واحدة • وبينما كانت تشعلها أحسـت ببعض قطرات الماء الباردة تسقط على وجهها وعلى ظهرها العاري • والآن جاء دور المطر أيضا ، قالت محدثة نفسها • سيئة هذه الليلة ، لكن من حسن حظها أنها قريبة من المنزل • قصف الرعود الصماء يجلجل سمعها •

وهي في هذه الاثناء أحست أن ثمة شخصا وراءها • التفتت بسرعة ، ممسكة محفظتها بقـوة ، فقـد حدث ذات مرة لاحدى زميلاتها أن أغاروا عليها وسلبوها كل ماتملك ، وبقيت قعيدة البيت لمدة أسبوع بوجه متورم من أثر الصفعات لم تتبينها في البداية ، لأنها صغيرة ترتدي ثوبا رصاصيا قاتم اللون • أو بالاحرى رأت أول مارأت فقط قدميها لأنهما كانتا عاريتين مـن الحذاء والجورب • ظنت أنها ربما كانت غجرية نزلت المدينة لتنهب برفقـة أبيها أو أخيها • نظرت بعيدا على امتداد الشارع لترى ان كان مع الطفلة أحد! ، لكن دون جدوى ، وسمعت صوتا يقول : « أنا عطشى ياسيدتي » •

نظرت الفتاة في عيني الطفلة الضارعتين اليها ، والمطر يزداد غزارة • كانتا عينين غريبتين ، واسعتين كأنهما ليستا عيني طفلة وانما عينا فتاة صبية ، رأت فيهما أشياء كثيرة ، لا بل كثيرة جدا •

قالت الفتاة بحيرة : « عطشى » . والمطر في كل لحظة يزداد غزارة عـن ذي قبل ، فالتجأت تتقيه تحت مظلة حائطية .

تقدمت الطفلة منها بخطوتين اثنتين ، ووقفت تحت المظلة الى جانبها ، ثم قالت : « أنا عطشى ياسيدتي » .

سألتها الفتاة : « وهل أنت وحدك » . حبة مطر كبيرة سقطت علـى السيجارة فأطفأتها . فرمتها أرضا . أومأت الطفلة بالايجاب . « والماما » . فلم تجب . «وأين بيتكم» . فلم تجب أيضا . سألتها الفتاة : «لماذالاتجيبين» . ولكن دون جدوى . فاشتد غيظ الفتاة . لاتريد لنفسها أي نوع من أنـواع المشاكل ، وهذي الطفلة القادمة من حيث لاتدري قد تكون مشكلة بحـد ذاتها . ربما هربت من البيت أو من الملجأ ، فكرت في أن تسلمها الى قسم الشرطة ، لكنه مكان لاترغب في التردد عليه . قالت لها : «والآن تشتد غزارة المطر » ، ثم دون أن تلتفت اليها مشت بخطى حثيثة باتجاه مجموعة البيوت القديمة خارج الساحة ، فهي البيوت الوحيدة التي بقيت قائمة في وجه موجة عارمة من تشييد المباني الجديدة الشاهقة ، حيث دخلت الزقاق المؤدي الـى منزلها . التفتت الى الوراء حين سمعت حفيف القدمين الصغيرتين العاريتين على الطريق المبللة اللامعة . « أنا خائفة ياسيدتي » ، قالت الطفلة . لم تكن تبكي . كانت تبدو رزينة ، الا أن العينين أصبحتا أكثر حزنا . فكرت الفتاة انها لاترغب في توريط نفسها بالمشاكل ، لكن حينما رأت الطفلة جامدة بهذا الشكل تحت المطر المنهمر كالسيل ، مدت لها يدها . حينذاك أحست باليـد

الصغيرة تشد على يدها ، فهرعت باتجاه باب الدار تجرها خلفها . « انتظري كي أفتح الباب » قالت لها ، وحالما فتحت الباب دفعتها فورا الى الداخل .

قبل كل شيء أعطتها لتشرب من ماء الصنبور ، وبالرغم من سخونة الماء فقد شربته الطفلة بنهم بالغ ، فاتسعت أساريرها قليلا . ثم قدمت لها الطعام . كان عندها فقط الخبز والحليب، حتى أن الحليب يكاد يصيرفاسداء

سألتها بعد ذلك : « ماسمك » . تحتوي الغرفة على سرير بلا مسند شبيه بأسرة المهاجع ، أكثر مما يكون بالاريكة . وفي الطرف الاخر ثمة أريكة خضراء مهترئة بجانبها طاولة مستديرة الشكل عليها أصيص مليء بالقرنفل الذابل . هواء الغرفة مفعم برائحة القرنفل وبالروائح المنبعثة عن البيوت القديمة . أما النافذة فهي تطل على فتحة سماوية مظلمة . والسماء لاتزال تمطر .

« ناتاليا » أجابت الطفلة ، وهي تنظر الى الصورة التي في داخل الاطار الموضوعة على طاولة واطئة الى جانب السرير ، فهي صورة شاب أشقر يرتدي قميصا حلت أزرار رقبته العارية من ربطة العنق ، تعابير وجهه لطيفة ومهمومة.

« أما عندك بيت أو أم » سألتها الفتاة بينما كانت تنزع ثوب الورودعن جسدها ، وبقيت بقميص داخلي قصير ، قرميدي اللون ، ينحسر عن ساقين سمراء البشرة لابفعل الشمس لانها لم تذهب الى البحر ، وانما بفعل صباغ أعفاها من لبس الجورب .

لم تجب الطفلة بأية كلمة ، وأدركت الفتاة أن الطفلة انما تتصرف بهذا

الشكل لتخفي ماعندها . تقدمت لتجلس الى جانبها على الاريكة العتيقة وأمعنت النظر في ثوبها الخامي ذي اللون الرمادي القاتم ، فهو مخاط من قماشة ثوب آخر ، وتعرفت أيضا على نوع القماش اذ أنها هي أيضا كانت في دير للفقراء وهي طفلة ، كما عاد الى فمها طعم الحساء الاصفر المائع الذي تحضره الراهبات انها تتذكره طيلة حياتها .

« هل أنت هاربة من الدير » سألتها الفتاة وهي تدرك تماما أن الطفلة لن تجيب حتى في هذه المرة . وبالفعل كان ذلك . عندئذ نهضت ومضت لتشعل سيجارة . ثم تناولت زجاجة من الخزانة التي تحفظ فيها ملابسها ، وأمت المطبخ الذي يشكل والغرفة كامل الشقة ، غسلت الكأس الوحيدة من بقايا الحليب الذي شربته الطفلة ، ثم صبت فيه مقدارا كبيرا من المشروب الكحولي لتحتسيه جرعة اثر أخرى ، بينما كانت تمسك باليد الاخرى سيجارة مشعلة .

« لارا ، لارا ،لارا » . بدأت تدندن بصوت خافت بعد أن تركت الكأس من يدها أغنية تحبها « ... عالقة كاللبلاب » . عادت الى الغرفة والطفلة لاتزال على الاريكة جالسة باستقامة ويديها على ركبتيها . زرعت المسافة القصيرة التي توفرها الغرفة جيئة وذهابا وهي تدخن ، مفكرة كيف أن الطفلة هربت من الدير ، دير البؤساء ، كما هو واضح من الثوب الذي ترتديه . لم تكن لديها بالطبع أية رغبة في الاحتفاظ بها ، خاصة وأنها تحتاج الى الغرفة لايمكنها بالطبع ، تواصل التفكير ، أن تشرح للطفلة أسباب حاجتها

للغرفة . صباح غد ، فكرت ، عليها أن تسلم الطفلة الى العجوز روزيتا ،صاحبة البيت ، لتقوم بدورها بتسليم الطفلة الى قسم الشرطة .

قالت للطفلة : « ألاتشعرين بالنعاس » .

بدا على الطفلة وكأنها تفكر في أمر ما ممعنة النظر فيها بعيني صبية يشوبهما قليل من الحزن الدائم ، ثم أجابت : « لاأدري » .

ضحكت الفتاة بانفعال . نزعت عن جسدها ثوب النوم ، اذ زادها المشروب حرارة . بانت كلها سمراء البشرة بفضل الصبغة ، فالنساء السمر في الصيف أشد جاذبية . فكرت في البداية أن تجعلها تنام في سريرها ، فقد يكون النوم مزعجا على الاريكة المهترئة بنوابضها المغطاة بالمخمل . الا أنها خجلت من ذاك السرير وقررت أن ترتب لها على الاريكة مرقدا .

قالت لها : « سترين كيف أنك تشعرين بالنعاس » .

وبعد أن انفضت من ارقادها على الاريكة ، عادت الى المطبخ لتنهي كأسها . «عالقة كاللبلاب » . طعم الحساء المقرف ذو الحموضة اللاذعة الذي كانت تتناوله في الدير عاد ثانية الى فمها فصبت لتشرب من جديد .

صباحا ، قالت لها العجوز روزيتا أن عليها أن تدبر أمرها بنفسها ، وأنها لن تذهب الى قسم الشرطة لاصطحاب الطفلة . ومقلمة الاظافر أيضا ، التي تقطن قبالتها قالت وهي تهز برأسها : « في قسم الشرطة يوجهون أسئلة كثيرة، أنت على الاقل لك اضبارة ، يعرفون من أنت ،وسيتركونك بأمان ، لكنهم

عندما سيتكلمون معي فسيعرفون أني أعمل مقلمة أظافر كستار، وسيضايقونني الى ماشاء الله » .

عندئذ حاولت أن تكلم ابن بائعة الخبز الذي كان يستند على الباب عند عتبة الدكان، الا أنه بادرها بتصرفاته البليدة .

قال مبتسما كالاغبياء : « موافق ، سأصطحبها الى قسم الشرطة ، ولكن ماذا ستعطيني مقابل ذلك » .

ابتسمت له صابرة ، وفكرت أنه يقتضي التحلي بالصبر دائما مع الرجال، ثم قالت : « تتدبر أمر بعضينا » .

حين رأت الام ابنها يتحدث معها ، نادته من داخل الدكان وهي تلبي طلبات الزبائن : « بيبنو ، أدخل » .

« كيف سنتدبر أمر بعضينا » ، قال لها وعيناه مليئتان بمزاح ماكر .

قالت له بسأم : « كف عن هـذا يابيبنو . سأنزل مـع الطفلة حـالا وستصحبها معك الى قسم الشرطة » .

« يابيبنو » ، نادته بائعة الخبز من داخل الدكان . كان صوتها مفعما بالغيظ ، فهي عجوز طاعنة في السن ، حتم عليها أن تسكن في هذا الشارع المكتظ بالنساء العاهرات ، وهكذا منذ أن شب بيبنو وبلغ الرابعة عشر ، أو الخامسة عشر من العمر أصبح يعيش والغضب يتفجر من جسده الذي تنهكه هذه التعيسات .

قال بيبنو : « للحظة واحدة ، بعدها اصطحب الطفلة الى قسم الشرطة ، وليس قبلها ، اذ لايمكن الاطمئنان الى تعابير وجهك » .

فلتغرق أنت وأمك . قالت ذلك في خلدها دون أن تنطق به . ان الرغبة في التخلص من الطفلة بأقصى سرعة ممكنة كانت أقوى من أي شيء آخر ، نظرا للخوف الشديد الذي يتملكها من الوقوع في المشاكل ، فحاولت التفاوض ثانية مع هذا المهرج : « ولكن قبل ذلك مستحيل لوجود الطفلة يابيبنو ، بينما بعد أن تكون قد سلمتها الى الشرطة سيخلو لنا المكان » .

نادت بائعة الخبز ثانية : « يابيبنو » .

قال بيبنو بوقاحة : «اما فورا واما لاشيء » . لكنه بدا واضحا أنــه لم يكن يرغب في اسدائها هذا المعروف ، ولاحتى أنه كان يحرص على الذهاب معها ، فقدتحرك باتجاه الداخل قائلا : « أمي تناديني » .

حينئذ فكرت أنه لم يبق لديها سوى « جاني » . ربما يقيم الدنيــا ويقعدها عندما يعلم أنها جاءت بهذه الطفلة الى البيت ، وربما أنه لن يتلكأ في تسليمها الى الشرطة لانه حريص جدا على ألا تراوغه وكي يوفر لها امكانية العمل ، والا ،فستصبح جيوبه خاوية من النقود .

اتصلت به هاتفيا مــن المقهى ، وانتظرته هنــاك . كانت تحس بألم في المعدة ، وكي تزيل هذا الالم شربت كأسا من « البيرنود » أثناء فترة الانتظار. وصل جاني على الفور . بعد أن شرب على حسابها كأسا من « البيرنود » دفعة واحدة ، قال لها: « والآن تلملمين شتات الطفولة الضائعة » .

قالت : « ولكنني لم أكن أرغب في ايوائها . كان المطر غزيرا فعز علي تركها على قارعة الطريق » .

قال : « أجل ، فهمت ، قلبك رقيق ، والان تناديني لانتشلك من المصيبة » . طلب فنجانا من القهوة ليغسل طعم البيرنود من فمه ، ثم قال : « أعطني أجرة التكسي ، فأنا لاأمشي مع الاغرار » .

فتحت المحفظة وتناولت منها ورقة من فئة الالف لير . رفع جاني السيجارة من بين شفتيه وقال : « هذا لايكفي أجرة للترام ، لاتتصنعي النعاس » .

طلبت كأسا ثانيا من البيرنود ، طالما أن الكأس الاولى أفادتها ، وتناولت من المحفظة ورقة من فئة العشر آلاف لير وأعطتها له .

ذهبا الى البيت فورا . التفتت الطفلة الى حيث سمعت حركة المفتاح في قفل الباب ، اذ كانت واقفة أمام النافذة .

حالما دخلت رمت محفظتها على السرير الذي لم يرتب بعد ،وحدثت نفسها مقتربة من الطفلة : حسنا طالما جاني سيذهب بها من هنا . وربما كانت الشرطة تبحث عنها والصحف تتحدث عن فقدانها . فتملكها خوف مريع لمجرد التفكير في أنهم قد يتهمونها بسرقتها ، أو ، من يدري ، بشيء أسوأ من ذلك . قالت لها : « ناتاليا ، هذا صديقي جاني . اذهبي الآن بصحبته للنزهة » ثم التفتت الى جاني وقالت : « عرج بها على المقهى وأطعمها الفطائر » . لكن الطفلة أكبر من هذا ، وقد تعرف أشياء كثيرة ، وربما كثيرة جدا ، فقد ارتسمت على جبينها المدور بعض التجاعيد الطفيفة ، وعبرت العيون عن

أشياء أكثر من الحزن ، بدت فيها تعابير المرارة واليأس ، رجعت الى الوراء خطوة ، خطوتين ، ثلاث خطوات ، استندت على الحائط ثم جرت قدمهابخطوة أخرى على طول الجدار • لم تصدق موضوع النزهة والمقهى وفطائره •

قال جاني : « لنذهب • تعالي معي » •

نظرت اليها الطفلة بيأس ، ثم نظرت الى يد جاني الضخمة القــذرة الممتدة لأخذها ، فهربت باتجاه الطرف الآخر من الغرفة الى جانب السرير •

صرخ جاني في وجهها وهو يقترب منها : « تعالي هنا ، أفهمت » •

حينما سمعت الطفلة هذا الصوت الحاد بدأت تنتحب قابعــة في ذاك الركن من الغرفة • بكت ، دون أن تنبس ببنت شفة ، بكاء كبكاء الكبار • أمسك جاني بذراعها بينما كانت هي تتشبث بأغطية السرير بشكل يائس • شدها اليه بعنف ، فتألمت متمسكة بأغطية السرير •

انفجرت الفتاة صارخة في وجهه : « لاتؤلمها » •

فقال جاني : « اسكتي أيتها الغبية ، اذا كانت ستبكي في الطريق بهذا الشكل فانهم سيقبضون علي قبل أن أصل بها الى قسم الشرطة ••• » ثــم التفت الى الطفلة رافعا يده كما لو كان سيصفعها ، قائلا بلهجة غاضبة : «كفي عن البكاء وارمي بتلك الاغطية » لكن الطفلة حاولت الافلات بكل ماأوتيت من قوة من قبضته التي تعتصر ذراعها •

فقال جاني : « خذي اذن هذه ، أريد أن أرى فيما اذا كنت ستهدئين» •

وهوى بكفه مابين الرأس والوجه ، بالقرب من الاذن ، مجلجلا الطفلة التي تركت الاغطية من يدها وبدأت تنتحب ألمـا .

حينذاك أرتعشت الفتاة وطعـم الحساء المقرف الـذي كانت تحضره الراهبات قد عاد الى فمها ، وانحنت لتلتقط زجاجة الكونياك الفارغةالموجودة بجانب السرير ، فقد أفرغتها أثناء الليل وهي تفكر في موضوع الطفلـة ، ورفعتها بحزم في وجه جاني .

قالت مهددة : « دعها وشأنها والا حطمتها على وجهك » .

جاني كان يعرف حالات الغضب التي تعتريها ، فترك الطفلة التي فرت منتحبة الى المطبخ قائلا : « خذيها أنت اذن ، واصطحبيها معك للنزهة عنـد المساء » . ابتسم بفم مغلق والسيجارة بين شفتيه .

قالت له : كان عليك ألا تضربها بهذه القوة .

قال : « ولكني لم أكد ألمسها، ياغبية » .

ذهبت وفتحت له الباب : « أخرج » ممسكة بالزجاجة .

أبتسم جاني ثانية بفم مغلق : « سأتركك الآن ، لكني في المرة القادمـة سأعجن لك هذا الوجه عجنا . » أغلقت البـاب في ظهره وأقفلته بالمفتـاح ، لأن جاني اذا أعاد التفكير فقد يعجن بالفعـل وجهمـا دون تردد . وضعت الزجاجة على الطاولة وأمت المطبخ النتن . كانت الطفلة تفتمد الارض تحت المغسلة الى جانب سلة القاذورات البلاستيكية . فصوبت نحوها عينيهـا

الكبيرتين الشبيهتين بعيني امرأة طاعنة في السن ، كانتا متورمتين بالدموع ، والعين اليمنى توشحت زاويتها بالسواد من أثر الصفعة .

قالت لها : « تعالي يا ناتاليا ، فقد انصرف » .

نهضت الطفلة وأحتضنتها من ساقيها ، ملقية برأسها في حضنها ، على التنورة الواسعة والقصيرة جدا ، ذات الورود البرتقالية اللون على أرضية سوداء ، بينما وضعت الفتاة يدها على رأسها . شعرها قاس من الوسخ . مرت بلسانها على شفتيها كما لو أنها تكاد تبكي حينما كانت هي أيضا طفلة . لكن طعم أحمر الشفاة أقرفها فلم تبك . فكرت ، انها لا تستطيع الاحتفاظ بها ، وكلما مرت ساعة كلما أصبحت المعضلة أكثر خطورة ، لكنها هزت كتفيها مفكرة : لا يهمني شيء البتة ، يمكنني الاحتفاظ بها هذا اليوم أيضا .

في الساعة الحادية عشر من مساء ذاك اليوم لم تخرج من البيت كعادتها في أماسي الايام الخالية . لم تأسف على شيء ، لأن السماء كانت تمطر بشكل متواصل ، ولم يكن ليروقها التسكع في الشارع تحت المطر . أثناء النهار غسلت الطفلة ، حيث كانت تسخن الماء على الغاز في المقلاة . غسلت لها شعرها وليّنته بمسحه بقليل من المساحيق فأضحى لماعا . قبيل حلول المساء خرجت الى السوق وأشترت لها ثيابا داخلية وجوربا وحذاء وثوبا ، كان الثوب أخضر اللون ، فستقي ،جميل الشكل ، عليه مسحة خفيفة من اللون الاصفر. فرحت الفتاة كثيرا عندما آكستها إياهم ، لم تملك أبدا دمى ولا أخوات

صغيرات لتلبسهن الثياب ،لكن خيل لها أنها تقوم بفعل شيء طالما كانت تتمناه دائما .

وربما بفعل هذا الحنان الغريزي الذي أحست به الطفلة يكتنفها ، فقد بدأت تجيب على أسئلتها . كانت في دير لأمثالها من الاطفال اليتامى من الاب والام . لكنها هربت منه لتأكدها من أن والدها لايزال على قيد الحياة . عندما كانت طفلة صغيرة جدا ، تتذكر أن شخصا ما قال لها أن والدها ذهب بعيدا ، في رحلة بعيدة ، وقد يعود . الا أنه بعد ذلك وضعها في الدير ، والراهبة قالت لها أنه مات ، لكنها لا تصدق الراهبة ، وأنها تريد العودة الى روما حيث ولدت ، فقد تعثر عليه .

سألتها : « كم هو عمرك » .
أجابت : « ثماني سنوات » .

في المساء ، بعد أن أعادت ترتيب البيت بمساعدة الطفلة ، أخرجت من تحت السرير الحاكي اليدوي القديم المغبر ، من يدري ان كان لايزال صالحا . كانت لديها اسطوانة لاغنية « طيري ياحمامة » بصوت نيللا بيتسي. بالرغم من نشاز الاغنية عبر مكبر الصوت المهترىء فقد كانت ناعمة . أصغت الطفلة الى الاغنية واقفة على قدميها بجانب النافذة وخلفها السماء البعيدة الغائمة حيث انحجب القمر عن الانظار ، وتلقي رأسها على كفها بوضع طفولي ، لا بل بوضع منغمس في التفكير العميق .

سألتها : « هل تعجبك » .

لم تجب الطفلة ، حينئذ تبعت نظراتها ، اذ كانت مصوبة نحو الصورة الموضوعة على الطاولة الواطئة بالقرب من السرير ، فهي صورة شاب أشقر يرتدي قميصا مفتوحا من الامام بشكل يظهر فيه عنقه ، تعابير وجهه لطيفة ومهمومة .

سألتها : « ولماذا تنظرين اليها » .

فسألتها الطفلة : « أهو خطيبك » .

ذهبت لتجلس على السرير ، ونظرت الى الصورة عن كثب ثم قالت : « أجـل » .

ان فكرة الادعاء بأن لها خطيب أحزنتها . فقد حظيت بخطاب عديدين لابل كثيرين منذ سنوات خلت ، كلهم كانوا يريدون الزواج بها ، لكنه في نهاية المطاف لم يتخذ أحد منهم أي قرار بشأن ذلك .

« من يدري ان كان أبي يشبهه « ، قالت الطفلة هذا وهي تدنو من الصورة لتراها عن كثب .

ابتسمت لها ودغدغتها من عنقها ، ثم همست لها بصوت خافت جدا : « أذهبي الآن الى الفراش فقد تأخر الوقت ، ثم اذا كان والدك لا يزال على قيد الحياة فستشعرين عليه ، انما ليس بمفردك ، فسيساعدك شخص ما، فأنت لاتزالين جد صغيرة » .

قالت الطفلة : «وهل ستساعدينني أنت » .

حتى تجعلها تذهب الى الفراش ، لأن لديها رغبة في الخروج الى المقهى من أجل شراء زجاجة بيرنود ، قالت لها : « أجل ، سأساعدك » • أصبحت قلقة بشكل أكبر مما كانت عليه في أمسيات الايام التي كانت تشتغل فيهـا على الشارع القريب • ولعلها تكشح القلق بالمشروب • كانت تراودها بعض الحماقات ، كأن تحتفظ بالطفلة الى الابد ويقتضي عليها أن تشرب حتى تكشح عنها هذه الحماقات •

سألتها الطفلة وهي تساعدها في خلع ثيابها :

« ما اسمك » • أجابت : « لوكريستيا • نامي الآن هنا مطمئنة فأنـا خارجة لدقيقة واحدة ، وسأعود حالا » حينذاك رأت تتشكل على جبينها هاتيك الاخاديد الصغيرة أسفا وخوفا • فقالت لها : « لا تخـافي ، ساعود حالا » •

قالت الطفلة : « أنا خائفة » • فتراجعت وجلست بجانبها على الفراش « لن أذهب ، هل أنت الآن مسرورة » • وثبتالطفلة من فراشها المهترىء وارتمت بين أحضانها « كثيرا جدا يالوكريتسيا » • ضمتها الى صدرها وهي تنظر الى صورة الشاب الاشقر • من يدري لماذا تحتفظ بها عندها • لا تفيدها بأي شيء • « بيل » واحد من جملة العديدين ، الا أنه ألطف منهم بقليـل • فقد كانيعاملها كانسانةحملتالطفلةبين ذراعيهاوأعادتها الى الفراش،وفجأةخطر ببالها « بيل » • أجل ، قد يساعدها حتما • لكنه في بلد ملعون يبعد خمسين كيلو مترا عن هنا ، وليس لديه هاتف • بامكانها الكتابة اليه ، فلو ذهبت

ووضعت الرسالة المستعجلة في بريد المحطة ، وأستلمها في اليوم التالي،فسيكون هنا عند المساء ، « تصبحين على خير يا تاتاليا » قبلتها ، ثم راحت تبحث عن ورقة ومغلف ، وفي أحد الادراج عثرت على قلم حبر ناشف منسي لا يزال صالحا للكتابة •

جاء بيل كغيره ، ذات مساء بعد منتصف الليل ، الى زاوية الشارع • كانت هي موجودة هناك كعادتها مع جيجي ، فتاة الشعر الاحمر ، الاشقر والاحمر منسجمان ، اذا توقف شخص عندهما تسأله أحداهما : « أيهما تفضل الشقراء أم الحمراء » ، سألته يومذاك جيجي ، فأجاب بيل « الشقراء» في البيت ، أو بالاحرى ، في هذه الغرفة ، جلس على الاريكة حيث تنام الآن الطفلة ، ولبث صامتا يدخن ويشرب البيرنود • بعد أن شرب ما فيه الكفاية بدأ يبكي • كانت قد ماتت خطيبته ، ومنذ أربعة أشهر لم يكشف على امرأة • يومذاك فكر أن عليه أن ينساها ، اذ لا يمكنه أن يبكيها مدى حياته •

فجاء الى المدينة يبحث عن فتاة ما • شقراء ، كما كانت خطيبته • لكنه أدرك الآن أن ليس بامكانه معاشرة امرأة أخرى ما من أحد يدري كم يلزم من الوقت حتى يستطيع معاشرتها • أعتادت هي على السكارى ، لا بل كانوا من اختصاصها كما كانت تقول جيجي ، فحاولت تهدئة خواطره وانسائه اياها • لكنه نهض واقفا ، وأبتعد عنها بلطف واضعا النقود تحت أصيص القرنفل قائلا : « سأعود ثانية » •

صار يأتي بانتظام ، كل خمسة عشر يوما ، لمدة ثلاث سنوات . بعد فترة وجيزة لم تعد تنتظره مساء يوم الخامس عشر في الشارع ، وانما في البيت ، متأكدة أنه لن يخلف موعده . كان بعض الاحيان يجلب معه بعض المأكولات ، فيتناولان طعامهما في البيت، ثم يقصدان السينما، أو كان يدعوها الى أحد المطاعم . عندئذ كانت تمسح عن وجهها كل الالوان ، ترتدي الفستان الازرق وتحاول أن تبدو قدر المستطاع امرأة كباقي النساء ، الا أن بعض التصرفات كانت تخونها كأن تدخن والسيجارة باستمرار بين شفتيها ، أو عادة هز المحفظة ممسكة بها من حزامها ، تسريحة الشعر المبعثرة . وكانت تلاحظ دائما أن ثمة رجلا ينظر اليها بامعان . لذلك طلبت منه ألا يصطحبها معه خارج البيت بعد الآن ، لكن بيل أجاب : « سأصطحبك معي الى كل الامكنة ، فثمة الكثيرات من هن أسوأ منك حالا ، حتى ولو كن لايبدين كذلك » .

بعد انقضاء العام الاول ، مرت فترة من الزمن كان يحدثها فيها عن فتاة قد يطلب يدها ، الا أنه بعد عدة أشهر من ذلك أخبرها أنه تركها . ومر الآن عام وهو يعرض عليها خلاله الذهاب للعيش معه . لا يتزوج بها ، لأنها متزوجة ، لا بل كان الزوج هو الذي دفعها الى قارعة الشارع . ولو لم يكن الامر كذلك لتزوج بها . لكنها كانت تعرف ما تؤول اليه مثل هذه الامور ، فالرجال عاطفيون جدا بعض الاحيان ، الا أنه بعد فترة وجيزة سيتملكه الملل منها ، أو أنه سيخجل من الاستمرار مع واحدة من أمثالها ، عندئذ يتحتم عليها البدء من جديد . لهذا كانت تحاول أن ترفض دون الاساءة

اليه ، واصما اياه بالجنون . لكن بيــل كان يلح عليها بذلك ، بالرغم مــن مراوغتها له . وبعض الاحيان تكاد ترضخ ، لكنها كانت واضحة الرؤيــة ولم تعد تمتقد في أي شيء .

منذ عام واحد لم تعد تقبل منه نقودا . لذلك كان بيل يقدم لها بعض الهدايا الرمزية : جوارب ، اسوارة ، رداء . أما الاسوارة فقد سلبها ايــاها جاني ذات مرة ، فصبر جميل ، فهي بحاجة الى من يحميها .

بكت ذات ليلة ، لأنها تشاجرت مع بيل ، الذي ألح على حملها معه ، فصرخت في وجهه أن يذهب ويتركها بحالها ، طالما سيرميها في الشارع بعــد عدة أشهر ، فأدركت في تلك الليلة أنها تحبه ، ولهذا السبب بالذات لا تريد الذهاب معه كونها امرأة من ذاك النوع .

طاقة القرنفل الاخيرة ، تلك التي لا تزال في الاصيص هو الذي أتاها بها منذ أربعة أيام خلت ، ولهذا السبب لاترميها حتى ولــو صارت قمامة ، والصورة طلبتها هي منه ، ووضعتها ضمن اطار فضي ، بحيث يتسنى لهــا التمتع ببعض الشعور أنه دائما معها هنا .

في مساء اليوم التالي لم يأت بيل ، ولا حتى في مساء اليوم الذي بعده، مع أنها هرعت البارحة الى بريد المحطة لتودع الرسالة . هكذا يحدث لهــا باستمرار ، فكرت ، حينما تكون بحاجة الى شخص ما ، فانهم يختفــون جميعا . لكنها لجزء غير يسير من وقت اليوم لم تتذكر أنها بانتظار بيل ، ولا حتى فكرة عدم امكانها في الاحتفاظ بالطفلة الى الابد . كان عليها أن

تنهض لتصطحب الطفلة خارج البيت للنزهة ، اذ لا يمكن لها أن تبقيها قعيدة البيت طيلة اليوم . في الساعة الثامنة كانت خارج البيت باتجاه الحدائق . مضت ساعة من الوقت لم تلتق فيها بأحد . ارتدت الفستان الازرق الذي كانت ترتديه عندما تخرج مع بيل ، ومسحت عن وجهه المساحيق الا قليلا من الاحمر على شفتيها ، وطيلة الفترة التي أمضتاها في الحديقة لم تدخن أية سيجارة . والطفلة بثوبها الاخضر الفستقي تسير الى جانبها ممسكة بيدها . داخل الحديقة تفرجتا على الحيوانات في جاحهم . والنادل العجوز في دكن بيع الحليب ، حيث كانتا هما الزبونتين الوحيدتين ، ربما كان عجز الشيخوخة حائلا بينه وبين أن يدرك أي نوع من النساء هي ، قال : « ما أجمل طفلتك ياسيدتي » ثم حكى لها أن عنده هو أيضا حفيدة في فيرشيللي ، مسهبا في وصف كامل تصرفاتها ، وبين الحين والاخر كان يناديها: يا سيدة ، ياسيدة ، فيما هي تحاول اخفاء أصبع يدها الخالية من الخاتم تحت المحفظة كي لا يلاحظ شيئا .

بعد هذا كله ، ابتاعت في طريق عودتها مستلزمات الطعام . لم يعلمها أحد ، الا أنها تجيد الطهي . كانت تحضر لنفسها شريحة اللحم ، أو طبق البيضتين ، أما الآن لوجود الطفلة ، فهي تعد أطباقا من الحساء الشهي وتطهو الخضروات ، وتمضي الساعات تتفنن في تقطيع لحم العجل قطعا صغيرة لتعد ذاك الطبق المحبب الى فاتاليا .

في حوالي الساعة الحادية عشر ليلا ، كانت لا تزال تحس بنشوة كبرى من السعادة . اذ أن التفكير في عدم امكانها الخروج من البيت لتعرض نفسها

على زاوية الشارع القريب من الساحة ، والنوم وحدها وسماع أنفاس الطفلة النائمة على الاريكة ، قد أعطاها احساسا بالراحة ، مثلما كان شأن يوم الاحد عندما كانت في الدير •

مساء البارحة ، نادتها جيجي قائلة : « ما بك ، هل أنت مريضـة » • فأرتها الطفلة وبينت لها أن ليس بامكانها فعل أي شيء • كـانت تود أن تصطحبها هي الى قسم الشرطة ، لكنها لا تذهب الى القسم خشية مـن أن تعود من جديد قصة جاني الذي ساهم في سرقة البنك ، حيث كانت عـلى علم بذلك •

قالت جيجي وهي تهز ردفيها : « أنا ، والى قسم الشرطـة » ، اجازة اقامتي انتهى وقتها منذ شهر واحد ، وان انتبهوا الى ذلك أعادوني فـورا الى بولونيا » •

«للاسف ، زوجها بولوني الجنسية ، ومنذ سنتين وهو يحاول الحصول على الجنسية الايطالية دون جدوى : «حاولي التخلص من هذه الرضيعة في أسرع وقت ممكن ، والا ستغوصين في مآزق جمة ربما كانت أكبر مما ترغبين» •

أجل ، تعرف ذلك ، لكنها الآن في هذه الليلة تتمدد على فراشها ، وعلى أرض الغرفة توجد العديد من المجـلات المصورة التي تقلبها بخمول ، دقت الساعة الثانية ثم الثالثة ، دون أن تشعر بها • لم تتذكر أثناء النهار أن تشتري زجاجة البيرنود ، وفي المساء لم تخرج من البيت لتشتري كي لاتترك الطفلة وحدها • لكن الفواكه موجودة باستمرار في البيت حاليا ، فتغير طعم فمها المحروق

من دخان السجائر باجاصة ، أو بعنقود عنب . كانت الطفلة تتقلب ذات اليمين وذات الشمال أثناء نومها لهذا كانت نوابض الاريكة تئن قليلا ، فتتوقف عن التفرج على صور المجلات وتنظر الى الجسد الصغير الممدد ، اذ تبدو كهرة تفتح احدى عينيها على أقل حركة تصدرها الهرة الرضيعة الراقدة على بطنها .

لم يأت بيل حتى بانقضاء الليلة السادسة ، وهي لا تستطيع أن تعرف فيما اذا كانت في حالة شوق ، أم هي في حالة خوف مما قد يحدث لها من جراء احتفاظها بالطفلة ، أم هي بالاحرى مسرورة لعدم مجيئه حتى لا يأخذها منها . ربما كانت في حالة شوق أكثر منها في حالة سرور ، لأنها عدت النقود التي في محفظتها ، اذا بها تكاد تفلس . بالنسبة لها لم تكن النقود لتعني أي شيء ، تنفقها دون حساب ، وتعطي منها قسما الى جاني ، وطالما أن لديها السجائر والبيرنود فلا شيئا آخر يشغل بالها . لكن لاول مرة تشعر بحاجة ماسة ومقوضة للنقود ، على الاقل من أجل الاستمرار على العيش بهذا الشكل لعدة أيام أخرى : لتسرح للطفلة شعرها عند الصباح الباكر ، لاصطحابها الى التنزه في الحدائق ، لتقدم لها كأس الحليب بالقهوة مع قطعة الخبز المحلى ، ولتشتري كل هذه الفواكة حتى تبقى بخير وفوق كل ذلك ، لتبقى مساء في البيت معها ، تستمعان الى بعض الاسطوانات قبل الذهاب الى الفراش ، أو تشرح لها بعض القصص المنشورة في المجلات ، كقصة الاميرة ثريا مثلا حيث تروق للطفلة مثل هذه القصص . لهذا ذهبت الى زيارة مقلمة الاظافر واستدانت منها ثلاثين ألف لير لم يكن معها غيرها . قالت

لها : « سأردها لك حالما أعـود للعمل » ، فقالت لها مقلمة الاظافر السمراء النحلية التي تروق كثيرا للرجال من ذوي سن معينة : « لا يمكنك الاحتفاظ بها ، ستتورطين في المشاكل » لكنها قالت لها ذلك بلهجة لطيفة وعـذبة ، ربما لانها كانت تفهمها ٠

هي أيضا تعرف أنه لا يمكنها الاحتفاظ بها ، لكنها مع هذا كله فهي تعيش حياتها يوما بيوم ، كما عاشتها من قبل ، وتتظاهر بانتظار بيل أن يأتي فيأخذ الطفلة الى قسم الشرطة ، لكنها كانت تأمل من أعماقها ألا يصل أبدا ولا حتى في يوم الخامس عشر ، وانما على الاقل في يوم السادس والعشرين كي يتسنى لها البقاء مع الطفلة وقتا أطول ٠ وتمضي الايام سريعا بصحبـة الطفلة ، كان يبدو أن لا حيلة مع الايام بهذه الغرفة المظلمة النتنة الرائحة ، كان يحل الليل دون أن تشعر به ٠ أما الآن فهي لا تكاد تتذكر أنها منـذ أسبوع فقط ، وفي حوالي الحادية عشر ليلا ، كانت تتوجه الى ما بعد الساحة حيث هناك تنتظرها جيجي كالعادة ، وحتى الساعة الثالثة صباحا تتمشى معها جيئة وذهابا وهما تدخنان السجائر ٠

بمبلغ الثلاثين ألف لير اشترت ثوبا آخر لناتاليا ، توشيه زهور صغيرة ، صغيرة ، ناعمة ، دات لون ليلكي ، على أرضية بيضاء٠ بعد أن البستها اياه أدركت أن الطفلة خلال هذه الايام القليلة قد فقدت كلية ملامح الصبـا والشيخوخة ، وعادت اليها عيناها الاكثر طفولة ، والاكثر ثقة كما كـانت بين الحين والآخر ترتكب بعض الحماقات مثلما يفعل باقي الاطفال ٠ حـين

لاحظت هذا لم تستطع المقاومة ، فنزلت الى الدكان وأشترت زجاجة بيرنود ، فلو أنها لم تفعل كذلك ، لبكت ، انما هكذا ضحكت طوال الليل مع الطفلة ولعبت معها لعبة قذف الوسادة . كانت هاتيك الليلة ، الليلة التاسعة .

في صباح اليوم التالي ، وبينما كانت تسخن مقلاة الماء على الغاز لتغسل الطفلة ، قرع الباب وصوت يقول : « شرطة » . عندئذ أطفأت الغاز ونظرت من النافذة وفي داخلها رغبة مشوشة خرقاء في الهروب منها.

« لحظة واحدة » أجابت . وضعت عليها الرداء المزهر كالعادة ، لأنها أدركت أن ثوب التايلور لم يعد يفيدها بشيء ، ثم فتحت الباب .

شرطيان أثنان تعرفهما جيدا من قسم الحي . شابان يقظان وصارمان . الطفلة مستيقظة ، لكنها لا تزال متمددة على أريكتها ، تمسك بيدها قطعة خبز محشية طازجة ، تأكلها على لقيمات صغيرة بانتظار الحمام .

قال أحدهما : « لاتفتعلي المشاكل يالوكريتسيا » . دخلا البيت والعمرة على رأسيهما : « ألبسيها ثيابها وتعالي معنا » .

جلست على المقعد بدلا من أن تنصاع للامر . نظرت الى الطفلة فرأت في عينيها ملامح الذعر والمرارة وعدم الثقة . تمسك بيدها قطعة الخبز دون أن تأكل منها . نظرت الى الشرطي الاكثر نحافة ، وهو الذي ذهبت معه الى الفراش بعض المرات لترضيته ، وقالت : « أتركها عندي يوما آخر » بالرغم من أنها تعرف حق المعرفة أن لاجدوى من الطلب .

جلس الشرطي النحيف على السرير ، لملم من أرض الغرفة مجلة مصورة وتصفحها : « صديقك جاني هو الذي جاء الى رئيس القسم ليخبر عنك ، لقد مر حتى الآن أسبوع كامل وأنا عالم بوجود الطفلة عندك ، كما أني شاهدتك ذات يوم معها • كنت أتجاهل وجودها عندك طالما لم يسأل عنها أحد ، وهي عندك بخير أكثر مما لو كانت في ملجأ اللقطاء ، لكني الآن لا أستطيع التصرف بتاتا ، فقد عاد رئيس القسم ويقتضي علي أخذها منك » ثم عاد الشرطي برأس منكس الى تصفح المجلة •

تطلعت فيه وهي تفكر بطيبة قلبه التي لم تدركها أبدا ، ثم قالت له : « شكرا » • نهضت وذهبت لتجلس على الاريكة بجانب الطفلة • لم تجرؤ على لمسها ، فلو أنها مسحت بيدها على تلك الذراعين الطريتين من الحرير الحي ، أو على ذاك الوجه الناعم اللدن ، لانفجرت بالصراخ ألما • لكنها همست : « لا تجزعي يا ناتاليا » • لم تنبس الطفلة بكلمة واحدة ، لكن عندما بدأت تلبسها ثيابها بكت بصمت ، وامتلأت جبهتها بالتجاعيد وشحنت نظراتها بالحزن ، دون ابداء اية ممانعة • لم تكن تنوح ، فقد كانت تواصل البكاء حتى عندما أمسكتها بيدها وخرجوا • بكت بصمت طوال الطريق حتى القسم ، تتبعها بخطوات قصيرة والشرطيان خلفهما •

تعلقت بها ، بتنورتها ذات الازهار البرتقالية على أرضية سوداء ، ملقية برأسها في حضنها حين مد شرطي في القسم لها يده لاقتيادها ، وشدت عليها بيأس ، دون أن تنطق بكلمة واحدة •

مسحت بيدها على رأس الطفلة ، وكذبت عليها بالرغم من معرفتها بأن الطفلة لن تصدقها ، فقدكانت كبيرة جدا في السن الاعتقادفي الحياة ، قائلة : « أذهبي ياناتاليا ، سأعود لاخذك بعد أيام قليلة ، وسنفتش معا عن البابا ». انفكت منها بتؤدة وبصعوبة ، كانت لديها رغبة جامحة في كأس من «البيرنود» لسانها أصبح كخشبة يابسة داخل فم ملتهب . ياالله ، ماأشد حاجتها الـى البيرنود . سلمتها الى الشرطي قائلة : « اذهبي معه ياناتاليا ، لاتخافي » . لم تنظر حتى الى الشرطي الذي يبتعد بها .

لم يبقوها في القسم وقتا طويلا . ضـرب الشرطي النحيل على الآلـة الكاتبة بعض الكلمات ، وجعلها توقع على الورقة ، ثم قبل أن تخرج شد على ذراعها وقال لها بلهجة عذبة قاسية : « لاتيأسي ، سيمكنك الذهاب لزيارتها في الملجأ » .

خرجت من القسم باتجاه البيت كان ثمة نصف زجاجة من البيرنود . تمددت على الفراش واحتسته رويدا رويدا ، فرغت الزجاجة وهي لاتزال عطشى ، لكن غلبها النعاس . استيقظت في حوالي الساعة العاشرة ليـلا . أحست بالثقل . رأت على الاريكة الشرشف والمخدة المحضرين للطفلة .هزت رأسها بقوة . في المطبخ ، لاتزال المقلاة على الغاز ، التي كانت ستحمم الطفلة بمياهها ، والصحن مليء بالاجاص والعنب . هزت رأسها بقوة . عـادت لتتمدد على الفراش التقطت من علىالارض مجلة، وفجأةتذكرت أنه بامكانها منذ الليلة العودة الى مكانها بالقرب من الساحة لتتسكع مع جيجي . تقريبا لم يبق من النقود شيئا ، وعليها أن ترد الثلاثين ألف لير الى مقلمة الاظافر ،

فقد لهت بالدمية مافيه الكفاية : تسع ليال من العطلة نهضت ،وأعدت نفسها، قبل الساعة الحادية عشر بقليل وصلت الى الشارع المعتاد والتقت جيجي التي كانت تتحدث مع أحد الرجال ، لكنه انصرف ، فقالت جيجي لها « ابن حـلال يريد أن يمزح » ثم نظرت اليها وقالت : « أنجحت في التخلص من الرضيعة » .

أومأت برأسها ايجابا . واصلت جيجي الكلام وهي تغمز هنا وهناك الرجال المارين ،ثم صمتت لدنو أحد الرجال . « أهلا بالمحامي » رحبت به جيجي . كان شابا يتأبط محفظة أعمال ، وبالرغم من انتشار البثور بكثـرة على وجهه ، فقد كان يتمتع بعينين جليتين في غاية الجمال . توقف محدقا في لوكريتسيا ، قائلا : «الشقراء » . نظر الى شعرها وبصوت خافت كأنما يتحدث مع نفسه ، قال : « تلك الشقراء » . أحست فجأة برعشة من البرد ، برد يجتاح كافة أطراف جسدها ، وخاصة في داخلها ، مع أنه كان شابا وسيما بسيماء شريفة طاهرة ، لكنها تخيلته داخل الغرفة حيث أمضت أياما قليلة مع الطفلة، تصورت نفسها معه بين تلك الجدران ذاتها ، والبرد يكاد يجمدها . فكرت أنها بكرت كثيرا في العودة الى العمل ، على الاقل في هذه الليلة لا ، لـن أستطيع في هذه الليلة تحملا .

بصوت غريب ، خافت ، يائس تقريبا : قالت : « زميلتي أجمل مني ، فاذهب معها » .

واصل الفتى تصويب نظراته الى شعرها وقال : « لابل أنت » ، رافعا احدى يديه ، ودس أصابعه في شعرها حاسا في النهاية ، كما كان يشتهي كثيرا،

الرعشة اللينة في أنامله . قالت له : « أحس بالالم ، لامزاج عندي ، علي أن ذهب فاعذرني » .

قال الفتى اللطيف المتشوق : « لكن لماذا » .

كررت : « أحس بالالم . ثم قالت لجيجي : « سأذهب الى البيت لاني حس بالالم » . ابتعدت مسرعة ، عندها رغبة جامحة في العويل . قطعت زاوية لشارع ودخلت المقهى ، حيث شربت على الفور كأسا من البيرنود ، ثم اشترت نه زجاجة ومضت الى البيت . تمددت على الفراش وبدأت تشرب .

عندما استيقظت ، كاد النهار ينتصف ، وهي تحس احساس الموت ، يجع في الرأس ، آلام في المعدة ، رغبة في البكاء . نهضت من فراشها وحضرت لقهوة . كادت تأتي على كل مافي الغلاية من قهوة عندما قرع الباب . كانت حينذاك لاتزال تشعر بالآلام تنهشها . اذا كان الطارق جاني ، جاني الذي جعلهم يأخذون الطفلة منها كي تتمكن من التسكع مع جيجي ، وتؤمن لـه لنقود ،فستشوه لهوجهه .

أمسكت بالزجاجة من رقبتها وضربت أسفلها على حجر المغسلة ، تماما شلما شاهدتهم يفعلون في الافلام ، فأصبح لديها بقايا زجاجة خطرة مدببة لنهايات جارحة :سأقتله ، حدثت بذلك نفسها وهي ذاهبة لتفتح الباب . م تكن تعي أنها تهذي محترقة بالمشروب ، تهذي من الالم .

« من الطارق » ، قالت متلعثمة باسترخاء قبل أن تفتح الباب .

« أنا » . أجاب بيـــل .

فقتحت الباب بتؤدة .

دخل رجل الصورة التي في داخل الاطار الموضوعة الى جانب السرير : أشقر ، نحيل ، ذو وجه لطيف .

جلست على الاريكة ، دون أن تنتبه الى أن زجاجة الحليب لاتزال في يدها ، أخذها منها بيل ثم قال وهو بجانبها : « ماذا هناك ، ما الذي حدث » . لكنها لم ترده عندئذ وضع يده على كتفها العارية وقال لها بصوت لطيف ، حنون « كنت خارج البلد ، عدت البارحة فوجدت رسالتك » .

لم تقل شيئا البتة . انتظر بيل قليلا ، ناظرا اليها وهو مدرك ، طالما انه يعرفها تماما : أنها قد شربت ، وأسرفت في الشرب . ثم قال لها : « وأين الطفلة » . لو أنها لاتزال موجودة عندها لسلمها فورا الى الشرطة . عندما سمعته ينطق بكلمة « طفلة » بدأت تبكي ، وبصمت ، تماما كما كانت تفعل الطفلة ، وأخاديد طويلة وعميقة ، ارتسمت على جبينها هي أيضا . ارتمت بين أحضانه وتشبثت بـه : « اني سقيمة . خذني بعيدا لبعض الوقت اذا كنت لاتزال تريدني ؛ لوقت قصير ، ينكشح السقم عني ، لفترة وجيزة فقط » .

دغدغها بيل على صدغها ، أحس بعنقها قد تبلل بالدموع فقال لها : « ارتدي ثيابك ولنرحل فورا » . لفترة وجيزة أو لمدة طويلة ، لاأحد يدري مايخبئه له المستقبل ، فكرت ، لكنه قد يتركها تعيش معه ، طالما كان يطلب منها ذلك باستمرار . عندئذ أغمدت أظافرها في كتفيه مخترقة سترته الصيفية الرقيقة ، مارة بالقميص حتى الجلد كي تكتم صيحتها .

آنا الشاجبة — قصة ألمانية

● هاينرش بـل ● ترجمة : د. حسان الحاج ابراهيم

ولد بل سنة ١٩١٧ لاب نجار ، فكان سابع ابنائه . كتب عددا من القصص والروايات والمقالات . وشارك في الحرب العالمية الثانية ، جنديا مقاتلا . وعن الحرب كتب اولى روايتيه وهما رواية (القطار في موعده) (١٩٤٩) ورواية (اين كنت ياآدم) (١٩٥١) .

وتعد روايته (البليارد في التاسعة والنصف) (١٩٥٩) خير ما ابدع من روايات ، وهو يصدر فيها عن نظرة ثاقبة لمشاعر العامة واسلوب معاشهم في المجتمع الحديث ، وبصورة خاصة في المانيه الغربية . وقد ترجمت رواياته وقصصه الى بضع عشرة لغة .

وتصور الاقصوصة المترجمة ادناه حالة الجندي العائد من الحرب الى بلده ، حيث لايجد احدا يعرفه ، ولايجد مايقولـه الا كل مايذكـره بالحرب المؤلمة .

أنا الشاحبة

كان قد حل ربيع سنة ١٩٥٠ عندما عدت الى الوطن من غمار الحرب ، فلم أجد في المدينة أحدا ممن كنت أعرفه . وكان والدي لحسن حظي قد تركا لي بعض المال ، فاستأجرت غرفة في المدينة ، كنت أستلقي فيها على الفراش ، أدخن وأنتظر ، ولا أدري ماذا كنت أنتظر . اما العمل فلم تكن لدي رغبة فيه . وكنت أعطي ربة المنزل مالا ، فكانت تبتاع لي ما أحتاجه جميعا وتهيء لي طعامي . وكانت في كل مرة تأتيني بالقهوة أو الطعام الى غرفتي ، تطيل مقامها عندي أكثر مما كنت أحب . وكان ابنها قد قتل في موقع يدعى كالينوفكا . وكانت اذا دخلت الغرفة وضعت الصينية على المنضدة ثم أقبلت الى الركن المعتم حيث كان سريري ، اذ كنت اتململ عليه وأغفو وأطفيء لفافات التبغ على الجدار ، حتى كان الجدار خلف سريري ملطخا ببقع سود . وكانت ربة المنزل شاحبة نحيلة ، اذا أطلت علي في العتمة بوجهها تخيفني منها، حتى لقد حسبت أن بها لوثة . فقد كانت عيناها واسعتين جدا وبراقتين ، وكانت ما تفتأ تسألني عن ولدها وتقول «أواثق أنت أنك لا تعرف فالمكان يدعى كالينوفكا . ألم تذهب اليه أبداً ؟ » .

ولكني لم أكن قد سمعت أبداً بهذا المكان الذي يدعى كالينوفكا . فكنت في كل مرة ادير وجهي نحو الجدار وأقول « لا .. اني لا أعرفه حقا ولا أذكره » .

ولكن ربة المنزل لم تكن بها لوثة ، بل كانت امرأة من خيرة النساء ، فكا

يحزنني لذلك سؤالها الدائم . فقد كانت تكثر من سؤالي ،تسألني في اليوم مرات ، فاذا ذهبت اليهافي المطبخ لم يكن لي بد من رؤية صورة ولدها الملونة التي كانت معلقة فوق الاريكة . وكان ولدها فتى أشقر بساماً ، يرتدي في الصورة الملونة لباس الخروج لجندي من المشاة .

قالت ربة النزل : « قد أخذت الصورة في الثكنة قبل خروجهم الى الميدان » ، كانت صورة نصفية ، وكان يعتمر فيها خوذة فولاذية ، وقد بدت خلفه واضحة صورة لخرائب قصر قد غطته نباتات معترشة من جوانبه كلها .

قالت ربة النزل « لقد كان جابياً في حافلة ، وكان فتى مجدا في عمله ». وكانت في كل مرة تخرج صندوق الصور الموضوع على منضدة خياطتها بين الرقاع والخيطان المشتبكة . وكان لا بد لي من أن أمسك بيدي صورا عديدة كثيرة لمجموعات من تلاميذ المدارس ، في كل صورة منها غلام قاعد في الصف الاول ، وسطه ، ولوح من المُشَقَّق (١) بين رجليه ، عليه رقم ٦ و ٧ وأخيرا ٨ . وكانت بينها صور مراسم العشاء الرباني ،مجموعة بعضها الى بعض بشريط أحمر من المطاط ، وقد ظهر فيها غلام باسم في ثوب أسود كانه سترة السِمَار (٢) ،ويحمل بيده شمعة ضخمة ، وقد وقف أمام لوح شفاف مرقوش عليه قدح من الذهب . وكانت هناك أيضاً صور أخرى تمثله في هيئة غلام قفالٍ ، ، واقفاً أمام المخرطة قد تلطخ بالهباب وجهه ، وأمسك بيديه مبردا .

وقالت ربة النزل « لم يكن ذاك عملا يصلح له ، بل كان عملا شاقاً

عليه » • ثم انها ارتني آخر صورة له قبل أن يلتحق بالجيش ، وقد ظهر فيها في لباس جباة الحافلات ، واقفا قرب عربة الخط التاسع عند موقف نهاية الخط ، حيث كانت تنعطف السكة • وتعرفت في الصورة على جوسق (٣) الاشربة المرطبة الذي كنت كثيراً ما أبتاع عنده اللفافات ، قبل أن تكون هناك حرب • وتعرفت في الصورة كذلك على أشجار الحور التي لا تزال الى اليوم قائمة في مكانها • ورأيت الدارة ذات الليوث المذهبة على بابها ، وقد زالت معالمها اليوم • وذكرت عند ذلك تلك الفتاة التي تفكرت فيها كثيراً أيام الحرب • كانت فتاة جميلة شاحبة حوصاء العينين ، وكانت تركب الحافلة دائماً من موقف نهاية الخط التاسع •

وكنت في كل مرة أطيل النظر في تلك الصورة التي كان يظهر فيها ابن ربة النزل عند نهاية الخط التاسع ، وكنت أتفكر في أمور كثيرة ، فأفكر في الفتاة ومصنع الصابون الذي كنت أعمل فيه آنذاك ، وكنت أسمع صرير القطار ، وأرى شراب الليمون الاحمر الذي كنت أشربه أحياناً في الصيف عند الجوسق • وأرى لوحات الاعلان الخضراء عن لفافات التبغ ، ثم أتفكر في الفتاة مرة أخرى •

قالت ربة النزل « لعلك كنت تعرفه اذن ؟ » •

وهززت رأسي نافيا ، ثم أعدت الصورة الى مكانها في الصندوق • وكانت لاتزال صورة لامعة ، تبدو وكأنها جديدة رغم مضي ثماني سنوات عليها •

قلت « لا .. .. لم أكن والله أعرفه ، ولا كنت أعرف كالينوفكا » .

كان لابد من أن أذهب اليها في المطبخ مرارا ، كما كانت تأتيني في غرفتي، فكنت أفكر طوال النهار في ذلك الامر الذي كنت أود لو نسيته ، أمر الحرب . وكنت أنفض رماد لفافاتي خلف السرير ،وأطفىء أعقابها على الجدار .

وكثيراً ما كنت أسمع في المساء وأنا مستلق هناك وقع خطوات فتاة في الغرفة المجاورة ، أو أسمع اليوغسلافي الذي كان يقطن في الغرفة المجاورة للمطبخ وهو يبحث عن زر الضوء شاتما لاعنا قبل أن يدخل غرفته .

وكان قد مضى عليّ في ذلك النزل ثلاثة أسابيع ، وكنت خلالها قد أمسكت بيدي صورة كارل نحوا من خمسين مرة ، عندما أدركت لاول مرة ان عربة الحافلة التي كان كارل يقف أمامها باسما حاملاً حافظة تقوده لم تكن خالية كما كنت أحسب . وللمرة الاولى أخذت أمعن النظر في الصورة في انتباه ، ورأيت عند ذاك فتاة بسّامة داخل العربة قد التقطت صورتها هناك . وكانت تلك الفتاة هي الحسناء التي طالما تفكرت فيها أثناء الحرب . وجاءت ربة النزل نحوي ، ونظرت متفحصة في وجهي ثم قالت « فقد كنت تعرفه اذن ، أليس كذلك ؟ » . ثم انها جاءتني من الخلف ، وأخذت تنظر في الصورة من فوق ظهري ، ومن ميدعتها (٤) المُشمَّرة تصاعدت الى انفي رائحة البسلّي الخضراء الطازجة (٥) .

قلت في هدوء « لا ، ولكني عرفت الفتاة » .

قالت « الفتاة ؟ انها كانت خطيبه • ولعله من الخير انه لم يرها من بعد » •

فسألتها « ولم ذاك ؟ » •

ولكنها لم تجبني ، وانما تركتني وقعدت على كرسيها قرب النافذة ، ثم أخذت تفرط حبات البسلى ، ثم قالت دون أن تنظر الي « هل كنت تعرف الفتاة ؟ » •

واستمسكت بالصورة ثم نظرت الى ربة النزل وحدثتها عن مصنع الصابون ، وعن موقف الحافلة في نهاية الخط التاسع ، وعن الفتاة الحسناء التي كانت تركب الحافلة دائماً هناك •

« وماذ بعد ؟ » •

قلت « لا شيء » • ثم انها اسقطت حبات البسلى في المصفاة ، وفتحت صنبور الماء • ولم يكن يبدو لي منها سوى ظهرها الضيق •

قالت « عندما تراها من جديد فسوف تعرف لماذا كان من الخير له انه لم يرها من بعد » •

قلت « أراها من جديد ؟ » •

ونشفت يديها بميدعتها ثم اقتربت مني وأخذت الصورة محاذرة من يدي ، وقد ضاق وجهها حتى بدا أضيق مما كان ، ثم تجاوزتني بنظرها ، ولكنها وضعت يدها على ذراعي اليسرى في سكون ثم قالت « انها تنزل في

الغرفة المجاورة لغرفك . نعم آنا تنزل هناك. ونحن ندعوها دائما آنا الشاحبه لأن لها وجهاً أبيض شديد البياض .. أفحقاً انك لم ترها بعد ؟ » .

قلت « لا ، لم أرها بعد ، وانما سمعتها تتحرك بضع مرات ، فما شأنها إذن ؟ » ، « لست أحب الحديث في ذلك ، ولكنه يستحسن أن تعرف ، فـان وجهها قد تشوه تماماً وغطته الندوب ، فقد قذف بها الانفجار في إحـدى الواجهات ، حتى إنك لن تستطيع أن تعرفها الان » .

وقـد انتظرت تلك الليلة طويلا حتى سمعت وقـع خطوات في الردهة ، ولكن ظني خاب في المرة الاولى ، فقد كانت تلك خطوات اليوغسلافي الطويل الذي حدجني بطرفه في دهشة وأنا أندفع نحوه بغتة ، فقلت له في ارتباك : مساء سعيداً ، ثم عدت الى غرفتي .

وقد حاولت أن أتخيل وجهها الذي تغطيه الندوب ولكن دون جدوى . فقد كنت اذا رأيته رأيت وجهـا جميلا على ما فيـه من ندوب . وتفكرت في مصنع الصابون ، وفي والديَّ ، وفي فتاة أخرى كنت أخرج معها في بعض الاحيان ، وكان أسمها إليزَبت ، وان كانت تدعني ادعوها (مِتس) . وكنت اذا قبلتها ضحكت وغلبني الخجل . وكنت أرسل اليهابطاقات من ميـدان الحرب ، وكانت ترسل الى رِزَماً صغيرة من الكعك البيتي ، فكان لا يصلني هذا الكعك الا مهشما ،كما كانت ترسل الي لفافات وصحفاً . وفي احدى

رسائلها كتبت الي تقــول « سوف تنتصرون ، وسوف أفخر بانــك كنت معهــم » •

حقاً ! لقد كنت فخوراً جدا باتني كنت معهم ! وعندما حصلت عــلى اجازة فاني لم أكتب لها عنها ، بل خرجت مع ابنة بائع لفافات كان يسكن في دارنا، فكنت أعطي ابنة بائع اللفافات صابوناً كنت أحصل عليه من الشركة، وكانت تعطيني لفافات ، وكنا نخرج معــاً الى دور السينما والمراقص • وذات مرة عندما كان أبوها خارج البيت ، أخذتني معهــا الى غرفتها فدفعتها في الظلام على الاريكة ، وما كدت أهم بان أنحني عليها ، حتى أدارت زر الكهرباء ، ونظرت الي باسمة في مكر • وفي الضوء الباهر رأيت صورة لهتلر معلقــة على الجدار ، وكانت صورة ملونة قد علقت على ورق الجدران الوردي ، وحولها قد أحاطت بها من كل جانب ، على شكل قلب ، صور نرجال قساة الوجوه ، على شكل بطاقات مثبتة بمسامير كبس ، وكانوا رجالا قد أعتمروا خوذات فولاذية ،وقد قصت صورهم جميعاً من الصحف المصورة • فتركت الفتاة مستلقية على الاريكة ، وأشعلت لفافة تبغ ثم خرجت • وقد أرسلت لي الفتاتان فيما بعد بطاقات تنكران فيها علي سلوكي ، ولكني لم أجبهما على بطاقاتهما •

وقد أنتظرت آنا طويلا ذلك المساء ، ودخنت لفافات كثيرة في الظلام ، وتفكرت في أمور كثيرة ، ولكنني عندما سمعت أخيراً صوت المفتاح يــدخل في القفل ، تملكني الرعب حتى لم أستطع أن أقوم وأرى وجهها ، وانمــا

سمعتها تفتح باب غرفتها ، ثم سمعتها وهي تدندن في عدوها ورواحها داخل الغرفة • ثم اني وقفت بعد ذلك وأنتظرت في الردهة • وبغتة ساد الهدوء غرفتها ، ولم تعد تغدو وتروح، ولم تعد تغني• وخشيت أن أطرق عليها الباب• ومن بعيد سمعت صوت اليوغسلافي الطويل وهو يدندن في غرفته جيئة وذهابا ،وسمعت صوت الماء يغلي في مطبخ ربة النزل •

أما غرفة آنا فقد شملها الهدوء ، ورأيت من فرجة في باب غرفتي البقع السوداء على الجدار ، حيث كنت أطفىء أعقاب اللفافات •

وأخيراً أستلقى اليوغسلافي الطويل على فراشه فلم أعد أسمع وقع خطواته ، وانما سمعت صوته وهو يدندن • وكذلك لم يعد الماء يغلي في مطبخ ربة المنزل ، وانما سمعت صوت رنين الفلزاذ غطت ربة النزل ركوة القهوة • وكان الهدوء لا يزال يشمل غرفة آنا • وعلى حين بغتة داهمني شعور بانها سوف تخبرني من بعد بما كانت تفكر به آنذاك وأنا واقف على بابها • وقد أخبرتني بذلك كله فيما بعد •

وحدقت في صورة كانت معلقة قرب الباب ، تصور بحيرة فضية تتلألأ، قد خرجت منها حورية ذات شعر أشقر مبتل ، وهي تبتسم لفتى فلاح قد اختبأ وراء شجيرات خضراء ناضرة • وكان ثديها الأيسر شبه ظاهر في الصورة ، وعنقها أجْيَد أبيض شديد البياض ••

ولست أدري متى حدث ذلك ، ولكنني وضعت من بعيد يدي على مقبض الباب وقبل أن أضغط عليه وأفتح الباب متباطئاً ، عرفت أن آنا ستكون من نصيبي • كان وجهها قد

ملاءته ندوب صغيرة لامعة مُزْرقّة . ومن غرفتها أنبعثت رائحة الفطر الذي كان يطهى في المقلاة . ثم فتحت الباب على مصراعيه ، ووضعت يدي على كتف آنا ، وحاولت أن أبتسم .

□ اشارات □

(١) لَوْح من المُشَقّق وهو الأردواز .
(٢) السمار أو مجلس السمر ويكون ليلاً ، أو هو (السَهْرة) .
(٣) وهو الكشك Bude .
(٤) وهي المريول
(٥) وهي البازلاء .

الرأس ذو الريشة

قصة أمريكية

● ناثانيل هوثورن ● ترجمة : السيدة عصام صبري

تعريف بالمؤلف

ن . هوثورن كاتب امريكي عاش بين ١٨٠٤ و ١٨٦٤ تبدو في حياته مرحلتان اتاحتا له ان ينعم النظر في الوجود الانساني وخلعتا على قصصه مسحة نفسية خيالية ممتازة .

المرحلة الاولى بين التاسعة والثانية عشرة من عمره حين اصيب اصابة بالغة في قدمه حجزته عن الذهاب الى المدرسة وعن لقاء اترابه فعاش بجانب امه واختيه ، اذ كان والده وهو بحار قد توفي بالحمى الصفراء بعيدا من بلده، انصرف في هذه المرحلة الى القراءة والحلم والتامل.

المرحلة الثانية عزلة فرضها هو على نفسه بعد ان تخرج في احد المعاهد في فرسويك عام ١٨٢٥ دامت عدة سنوات حتى مطلع الثلاثينات من عمره قضى معظمها في بيت الاسرة العتيق وفي ذلك الجو الغريب الهادىء الحالم نفسه فعكف يقرا ويحلم ويكتب . ثم ها هو ذا ينشر قصصه باسماء مستعارة .

كان هوثورن متواضعا ولكنه ذو خيال عارم جعله شبيها بالبومة في طيرانها العنيف . الا انه بقي طبيعيا دون اغراب . كان يتلمس جوانب عميقة من النفس الانسانية دون تطرف ولا اسراف على الرغم من جموح خياله ذاك . كان سويا في معاملته محبا للاحسان متمسكا بالقيم الخلقية، ولكنه كان متشائما بعض الشيء . من اقواله : ((السعادة في هذا العالم ان جاءت فهي تجيء مصادفة)) .

نادت الأم ريغباي : « شعلة لغليوني ياديكون ! • »

كان الغليون في فم المرأة عندما قالت هذه الكلمات • وضعته بعد أن عبأته بالتبغ ولم تنحن لتشعله من الموقد الذي لم يبد أنه أشعل هذا الصباح لقد علت الغليون نارٌ حمراء بمجرد أن أطلقت الأمر وانسابت سحابة دخان من شفتيها •

جلبت الجذوة يدٌ خفيّة لا أعرف سرها •

قالت الأم ريغباي وهي تومىء برأسها : « حسناً شكراً يا ديكون ! والآن لكي أجهز (الفزاعة)[1] كن معي دون أن أناديك ، اذا احتجت اليك » •

لقد نهضت المرأة الطيبة مبكرة حين بدأت الشمس تشرق وذلك لكي تشرع في صنع الفزاعـة التي تنوي أن تضعهـا في وسط حقلهـا المزروع بالحبوب • حدث هذا في آخر أسبوع من أيار ، وكانت الغربان والطيـور السود قد اكتشفت منذ وقت قريب الورقة الخضراء الصغيرة من نبات الحب الهنـدي الذي بدأ بالظهـور على سـطح الأرض • لذلك قررت أن تصـنع فزّاعة تشبه الشخص الحقيقي وأن تنهيه من رأسه الى أخمص قدميه بسرعة حتى يُنجز واجبه في الحراسة هذا الصباح بالذات • لقد كانت الأم ريغباي كما يعلم الجميـع من أحذق وأمهـر السـاحرات في نيو إنجلاند وهي قادرة ــ بجهد ضئيل ــ على صنع فزاعة بشعة تخيف أي مخلوق ولو كان وزيراً•

---

(1) الفزاعة ما ينصب في الحقول لتخويف الطيور •

ولكن لما كانت قد استيقظت بمزاج هادىء على غير عادتها وهي الى ذلك تتلذذ بغليونها فانها قررت بسبب ذلك أن تصنع شيئاً رائعاً وجميلا لا شيئا بشعاً مشؤوما . قالت في نفسها : لا أريد أن أضع على عتبة بيتي (بعبعاً) ولو أني أستطيع أن أصنع فزاعة بشعة ان شئت . ولكني سأضع واحدة عادية لا غيّر من عادتي . والى جانب ذلك لا حاجة تدعو لأن أخيف الاطفال الصغار ولو كنت ساحرة .

وقرّ في ذهنها أن تمثل الفزاعة رجلا نبيلا رائعاً بقدر ما تسمح المواد التي بين أيديها . وربما من المناسب ذكر العناصر التي ستكوّن ذلك التمثال .

أهم جميع الأشياء بالتأكيد عصا مقشة جعلتها الأم ريغباي مطيتها في منتصف الليل عدة مرات . وتفيد الآن في صنع العمود الفقري للفزاعة . أما اليدان والقدمان فمن العصي والمقابض .

وأما الجسم فكيس محشو بالقش . وأما الرأس فهو قرعة جافة قديمة حفرت الأم ريغباي فيها حفرتين لتمثلا العينين ، وفتحة ثالثة تمثل الفم ، وتركت كتلة ضاربة الى الزرقة في الوسط لتكون الأنف . والحق كان وجهاً محترماً .

قالت الأم ريغباي : « رأيت وجوهاً أسوأ منه على أكتاف آدميين ، وكثير من الرجال النبلاء رؤوسهم يقطين مثل فزاعتي » . ولكن الملابس في هذه الحالة يجب أن تكون من صنع خياط ماهر لذلك أنزلت المرآة الطيبة

المسنة معطفاً قديماً أرجواني اللون من صنع لندن كان في سابق العهد معطفاً أنيقاً مطرزاً وأصبح الآنعتيقاً ممزقاً ، على صدره الأيسر شق مدور كما لو أن شيئاً مزقه وهو خارج منه • وكان تحت المعطف بنطال أحمر ارتداه ذات مرة حاكم فرنسي في (لوزبورغ) وركبتاه انحنتا الى الأرض أمام الملك لويس • وألبست الأم ريغباي فزاعتها زوجاً من الجوارب الفضية ألصقتها على الساقين •وأخيراً وضعت على رأس القرعة شعرا مستعارا كان لزوجها المرحوم • ووضعت فوق الشعر قبعة مغبّرة ذات ثلاث زوايا ، ولها ريشة طويلة •

حينئذٍ أسندت المرأة العجوز اللعبة في زاوية منزلها وأخذت تضحك من مشاهدة وجهها الاصفر بأنفه المرفوع نحو الهواء • كان في تلك اللعبة نظرة رضى بالنفس وكأنها تقول « تعالوا أنظروا إلي » •

قالت الأم ريغباي وهي فخور بعملها : « إنك حقاً لجدير بالنظر • لقد صنعت لعباً كثيرة منذ أصبحت ساحرة ولكن أظن هذه أحسنها جميعاً • إنها أجود من أن تكون مجرد فزاعة • سأملأ غليوني تبغاً وأحملها الى الحقل » •

وأخذت تحشو غليونها وهي ماتني ترمق بأمومة الوجه المسند في الزاوية •

أقول الحق لقد كان في شكل اللعبة ووجهها شيء انساني رائع • وكلما أطالت الام ريغباي النظر ازدادت سروراً بها • ونادت بحدة : «ديكون

شعلة أخرى لغليوني!» وما كادت تنهي كلامها بل قبل ذلك لمعت الشعلة الحمراء في رأس الغليون •

سحبت نفساً ونفثت الدخان مع أشعة الشمس الصباحية التي أخذت تتسرب من نافذة بيتها التي عشش فيها الغبار وأخذت تفكر وهي مثبتة نظرها في الفزاعة :

« ذاك الوجه لطيف جداً • انه قطعة فنية • حرام أن يقف طوال الصيف في الحقل ليزجر الغربان والطيور السود • انه جدير بما هو أفضل • لقد رقصت في حياتي مع من هم دونه شأناً في حفلات الغابة السحرية • لم لا أعطيه فرصة في هذا العالم الذي يعج بأمثاله من رجال القش والاصدقاء الفارغين ؟ » سحبت ثلاثة أو أربعة أنفاس من الغليون وابتسمت •

« سيقابل الكثيرين من اخوة له مشابهين في كل زاوية وفي كل سبيل • لا أعني اني سأعكف اليوم على السحر فوق شعل غليوني • ولكني ساحرة • وعلى الارجح سأبقى كذلك ، ولا فائدة من التهرب • سأصنع رجلا من فزاعتي فقط للعبث والتسلية » • وأثناء قولها هذا رفعت غليونها من فيها ووضعته في فم الفزاعة وقالت : « دخن يا عزيزي دخّن يا صديقي الرائع • حياتك تتوقف على ذلك » وما ان أمرته بذلك حتى أخذ الدخان يخرج من فيه كان الدخان قليلا ثم قوي شيئاً فشيئاً • وظلت الأم ريغباي تردد: «دخّن يا عزيزي دخّن يا جميلي » وهي تبتسم ابتسامة الرضى • « انه نفس الحياة لك ثق بما أقول » لاغرو أن الغليون كان مسحورا • أخذت الساحرة تفرقع بيديها

النحيلتين • وتبتسم لبراعتها فان السحر كان يسير سيراً حسناً لأن الوجه الأصفر الجاف الذي لم يكن وجهاً على الاطلاق صارت تتلامح فيه لمحات انسانية تجتازه من الامام والخلف وأحياناً تختفي تماماً ثم تظهر واضحة حين يمتص نفساً من الغليون • واستمرت العجوز تهتف : « دخّن جيداً يا غلامي الجميل ! هيا ! نفساً آخر أقوى ! دخن من أجل الحياة ! أقول لك دخن من صميم قلبك إن كان لك قلب ، وإن كان فيه صميم ! أعد ذلك بشكل أفضل ! دخن بملء فيك كأنك تحب الغليون حباً خالصاً ! » •

ثم أشارت الساحرة الى شبح الفزاعة أن يتقدم :

« لِمَ تتردد ؟ اخطُ الى الامام ! هاهو ذا العالم أمامك » أطاعت الفزاعة الام ريغباي ومدت يدها كأنها تريد أن تمسك بها وقامت بخطوة الى الأمام ، خطوة مترددة ، ثم كادت تسقط ، ماذا تتوقع الساحرة ؟ إنها ليست أكثر من فزاعة ! عود على قضيبين • ولكن المرأة العجوزعجّلته فخطا نحو أشعة الشمس المتألقة ووقف هناك على وشك أن يحور ركاماً فوق الأرض •

طفقت العجوز المتوحشة تشعر بالغضب وأظهرت لمحة من طبيعتها الشيطانية وصرخت بغضب :

« دخّن أيها المجنون ! دخّن ، دخّن ، دخّن ! أيها الشيء من القش والفراغ والحماقة ! ياخرقة أو خرقتين ! يارأساً من القرع ! يالاشيء ! أين يمكن أن أجد اسماً تافهاً الى الحد الذي يناسبك لأناديك به ! أقول لك دخّن ،

وتنشق حياتك مع التدخين ! وإلا أخذت الغليون من فيك وبعثت بك حيث جاءت هذه الشعلة الحمراء ! »

عندما هددت الفزاعة هكذا لم يعد بوسعها إلا أن تتنفس من أجل الحياة العزيزة • وبعد قليل صار المطبخ يعج بالدخان مع شعاع واحد من الشمس يصارع وحده •

كانت الفزاعة المسكينة تدخن بخوف وارتعاش • ولكن يجب الاعتراف أن جهودها أثمرت تماماً ومع كل نفس من الدخان كانت تزداد الملامح الانسانية في الوجه وصارت الملابس تبدو جديدة •

وأخيراً هزت الساحرة العجوز إصبعها في وجه الفزاعة • كانت تستعد لعمل ماهو أعظم • قالت بحدة :

« هاأنت لك مظهر الرجل • ليكن لك صوته آمرك بالكلام » جهدت الفزاعة ، وصدر بعد لأي صوت خافت مسكين يقول :

« أمي لاتكوني قاسية علي • إني أريد حقاً أن أتكلم ولكن ماذا يمكن أن أقول وأنا لاعقل لي ؟ »

هتفت الأم ريغباي بابتسامة منفرجة :

« أنت تستطيع أن تتكلم • ألا تستطيع ؟ مــاذا تقول ؟ تقول آلاف الأشياء وتقولها آلاف المرات وتبقى لست قائلا شيئاً لا تخف أقول لك وعندما تذهب الى العالم (لأن في نيتي أن أرسلك وشيكاً اليه) لن تنقصك موهبة

الكلام . سوف تتكلم مثل الجدول الذي يسيّر الطاحون اذا شئت . وحقي عندك من العقل مايكفي ! أجابت الفزاعة « أنا بأمرك ياأمي »

« هو ذا قول جيد ياحبيبي » أجابت الأم ريغباي . « والآن ياعزيزي لقد تعذبت كفاية من أجلك . وإنك لجميل ومن حقي أن أهواك أكثر من أية لعبة سحرية في العالم أنا التي صنعت أنواعاً كثيرة منها ، إذ إنك أفضلها على الاطلاق . ولكن أصغ لما أقول :

— « نعم ياأمي اللطيفة هاأنذا أصغي إليك من كل قلبي »

— « من كل قلبك » هتفت العجوز وأرخت يديها على جانبيها واخذت تضحك بصوت عال . « لك طريقة جميلة في الكلام .. من كل قلبك ! لقد وضعتَ يدك على الجانب الأيسر من صدرك كأن لك قلباً ! » والآن اخبرت الأم ريغباي بمزاج رائع الفزاعة أن عليها أن تذهب لتلعب دورها في العالم العظيم حيث لايوجد واحد بالمئة من الرجال أحسن من هذه الفزاعة وطلبت إليه أن يعتبر رأسه من بين أفضل الرؤوس هناك . وأعطته للفور مقداراً كبيراً من الثروة : مالا وأراضي وقصوراً وأمثال ذلك .

« يكفيك الآن هذا لتشد رحالك الى الأرض هات قبلة منك . لقد بذلت أقصى ماأستطيع من أجلك » .

وفوق ذلك ، ولئلا تتعرض هذه المغامرة لأي نكوص محتمل في نجاحها بالنسبة لهذه البداية المتواضعة في الحياة أعطته تلك المرأة الرائعة إشارة تساعده على التعرف بها على شخصية عظيمة . هذه الشخصية هي تاجر كان

في ذروة المجتمع ويعيش في المدينة المجاورة ولم تكن الاشارة أكثر ولاأقل من مجرد كلمة واحدة همست الأم ريغباي بها في أذن الفزاعة ، وعلى هـذه أن نهمسها في أذن الرجل •

قالت الساحرة : « هذا الزميل القديم سوف يهلل لك لضعفه ويرحب لك عندما تهمس له بهذه الكلمة » •

إن الأم ريغباي تعرف حق المعرفة السيد (غوكين) الوجيـه • وهـذا لسيد الوجيه يعرف الام ريغباي أيضا •

واذ ذاك قربت الساحرة وجهها المسن من اللعبة ضاحكة بصوت عال يبهجة من الفكرة التي قالتها وهمست :

« إن للسيد الوجيه بنتاً وإن لك مظهراًمقبولا وعقلا جيداً كافياً • نعم ! اقول لك : عقلا كافياً وستجده عقـلا أفضـل من غيره اذا ما قارنتـه بعقول لناس الآخرين • لاشك في ذلك • وأبوح لك بما سيحدث ان الفتـاة بولي وكين ستكون لك !

كل ذلك والمخلوق الجديد يدخن غليونه بلذة يستقيها منه كما يدخنه الضرورة من أجل شروط عيشه • وكان أمراً رائعاً أن يرقب المرء شبهه بالكائن لانساني في تصرفاته • كانت عيناه متجهتين نحو الساحرة ومن وقت إلى آخر كان يومىء برأسه ويهزه كما تقتضي المناسبة • ولم تنقصه الكلمات الملائمـة ب هذا الظرف مثل : حقاً ! في الواقع ! أرجوك خبرني ! من المحتمل ! وحق

نفسي ! على الاطلاق ! آه ! واهاً أهكذا الخ .. وكلمات أخرى مهمة من أمثال هذه .

وبينما كان يصغي ويدخن ، ويدخن ويصغي كان يزداد جمالاً في مظهره. وعلى أية حال تجدر الملاحظة أنه لما كانت حياة هذه الفزاعة تتوقف على عمر الغليون فإنها لاغرو ستقضي فجأة عندما يتحول الغليون إلى رماد . وقد أدركت الساحرة هذه الصعوبة :

ـ «أمسك الغليون أيها الغالي ريثما أملؤه لك ثانية» وكان المرء يحزن إذا نظر اليه وهو يتحول من رجل نبيل الى فزاعة بينما كانت الأم ريغباي تفرغ الغليون من الرماد ثم تعبئه من علبة التبغ . نادت بصوت عال ديكون أشعل الغليون ! واشتعلت جمرة الغليون ثانية . ودون أن تنتظر الفزاعة الأوامر وضعت الغليون في فمها وشرعت تدخن .

قالت الأم ريغباي : « الآن ياحبيب قلبي ، في كل مايعرض لك التصق بغليونك لأن حياتك فيه وهذا ماتعرفه على الأقل حق المعرفة اذا كان ينقصك معارف أخرى .. أقول الزم غليونك دخن وانشر غيمتك وأخبر الناس إذا سئلت أن ذلك التدخين ضروري لصحتك وأنها أوامر الطبيب! وعندما يا حبيبي يخبو غليونك اذهب وحدك إلى احدى الزوايا (قبل ذلك إملأ نفسك بالدخان وناد بحدة : ديكون غليون تبغ جديداً ! وديكون شعلة لغليوني ! وضعه في فمك المذب بأسرع مايمكن وإلا تصبح عوضاً عن كونك الرجل النبيل

بالمعطف الانيق كومة من العصي والملابس الرثة والقرعة الجافة . والآن ارحل ياكنزي وليرافقك الحظ السعيد ! » .

قال التمثال بصوت جهوري وهو يرسل سحب الدخان :

لاتخافي ياأمي سأرحل كما يفعل الرجل الشريف والرجل النبيل هتفت العجوز وهي تضحك بعظمة : فداك نفسي ! إن قولك رائع كما يفعل الرجل الشريف والرجل النبيل إنك تقوم بدورك بشكل كامل يا لك من فتى حاذق إنك ستجابه المصاعب وأنت واقف على قدميك خذ هذه عصاي التي أتوكأ عليها إنها لك » ورغم أنها كانت عصا عادية إلا أنها توهجت فجأة وصار لها لمعان الذهب وقالت الأم ريغباي : « هذه العصا برأسها الذهبي تقودك إلى باب الرجل الوجيه السيد غوكين . اذهب ياجميلي ياعزيزي أيها الغالي ياكنزي وإذا سألك أحد اسمك قل له اسمي ذو الريشة لأن لك ريشة فوق قبعتك » .

خرج ذو الريشة من المنزل وسار قدما نحو المدينة . ووقفت الساحرة تشيعه عند الباب بنظرة راضية وشعاع الشمس يغمره كما لو أن عظمته الظاهرة كلها حقيقية . ما كان أروعه وهو يدخن غليونه وما أعظم رشاقة مشيته رغم اليبوسة القليلة الباقية في رجله . شيعته حتى غاب عن ناظرها وتمتمت برقية سحرية بعد أن اختفى في منعطف الطريق .

في الصباح الباكر عندما كان الشارع الرئيسي في المدينة المجاورة تدب فيه حركة الحياة والعمل كان غريب له وجه فخور يشاهد ماشياً على الرصيف . كان يبدو من النبلاء بملابسه الغنية ، وكان رأسه وشعره مرتبين حتى ليخشى

المرء أن تفسد القبعة نظامهما وهو لابد واضع سلاحه (الفكري) تحت القبعة!

وفي صدر معطفه تلمع نجمة وكان يحمل عصاه ذات المقبض الذهبي بشكل هوائي يناسب الرجل النبيل في ذلك الوقت . ويمسك بيده اليسرى غليوناً من نوع غريب له فجوة جميلة مرقشة بالرسوم ، وكان يضع الغليون في فمه كل خمس خطوات أو ست . وكما كان متوقعاً تلهف الحي بأكمله لمعرفة اسم ذلك الغريب .

قال أحد الناس : إنه لاشك رجل نبيل عظيم ! هل رأيت النجمة على صدره ؟

فأجابه الثاني : الحقيقة ينبغي أن يكون رجلا نبيلا .

وقال ثالث : لم أر في حياتي من يعادله عظمة في مظهره .

وقال مواطن آخر : في رأيي إنه نشأ في البلاط الفرنسي . انظر اليه كيف يمشي ! وهذه الصلابة في مشيته محترمة جداً وهتفت سيدة : « إنه شاب جميل طويل جداً ياللوجه الدقيق النبيل والأنف الاذلف والفم الرقيق ويلي كيف تشع نجمته ! في الواقع إنها ترسل شهباً » ..

وأجاب الغريب وهو ينحني : « وعيناك ترسلان شهباً ياسيدتي الجميلة» إذ كان يمر في تلك اللحظة .

وقالت السيدة منبهرة : واهاً لهذا الكلام الرقيق الناعم !

بين أصوات الاعجاب هذه التي أثارها مرأى الغريب شذ صوتان

بازعاج : الصوت الأول لكلب شم عقب الغريب وسارع الى باحة سيده وهو ينبح نباحاً عاليا . والصوت الثاني لطفل أخذ يبكي عندما شاهد الغريب ويتمتم كلمات مبهمة تتعلق باليقطين ..

أثناء ذلك تابع ذو الريشة طريقه وكان يبدو منصرفاً تماماً إلى غليونه لولا هزة من رأسه بين حين وآخر . وكان جمهور غفير يتبعه حتى وصل أخيرا إلى المنزل الرائع الذي يقطنه الوجيه السيد (غوكين) ودخل من البوابة وصعد السلم المؤدي الى الباب وقرعه . وفي البرهة التي سبقت فتح الباب أخرج الرماد من غليونه . وسأل أحدهم : « ماذا قال الغريب بهذا الصوت الحاد ؟ » أجاب صديقه : « لاأعرف ولكن الشمس تؤثر في عينيّ بشكل غريب إن لهذا النبيل مظهراً عجباً اذا نظرت اليه فجأة ليحفظ الله عليّ عقلي ماذا جرى لي ؟ »

قال الثاني : « العجيب أن غليونه وكان فارغا منذ لحظة قد امتلأ واشتعل ثانية يوجد سر في هذا الغريب أية غيمة دخان ! هل أسميه عجباً ؟ عندما التفت اشتعلت نجمة في صدره . » فتح الباب وانعطف ذو الريشة نحو الناس وقام بانحناءة عميقة ثم اختفى في المنزل .

(بولي غوكين) بنت ذات وجه مستدير ناعم . شعرها مضيء وعيناها زرقاوان وخداها موردان أسيلان وهي لا تبدو ذكية جدا ولا بسيطة جدا . لمحت هذه الصبية الغريب اللامع الواقف أمام الباب فارتدت ثيابا جميلة مناسبة لتلك الزيارة .

وما إن سمعت خطوات والدها تقترب من الردهة مع خطوات ذي الريشة بحذائه ذي الكعب العالي حتى جلست قبالتهما وشرعت تغني أغنية •

نادى التاجر المسن : بولي ابنتي بولي تعالي ياطفلتي » •
بدت على وجه السيد غوكين عندما فتح الباب ريبة واضطراب • ثم قــدم لها الغريب : هذا النبيل هو اللورد ذو الريشة • حمل لي ذكرى من صديقــة قديمة • قومي بواجبات الضيافة التي يستحقها يابنتي »

وبعد كلمات التعارف القليلة هذه غادر التاجر الفاضل الغرفة • ولكن الفتاة لاحظت أن أباها مضطرب الأعصاب شاحب الوجه •

والحقيقة أن اشارة الساحرة فعلت فعلها في إثارة مخاوف الرجل لافــي شحذ ارادته الطيبة • واذا اقتربنا من الحقيقة أكثر ذكرنا أن الرجل لاحــظ الرسوم المدهونة على غليون ذي الريشة وأدرك أن هذا الغليونيقوم بالسحر• وكان متيقناً أن هذه الرسوم تمثل حفل شياطين يرقصون ويمسك كل يــد الآخــر •
كان يسر السيد غوكين أن يلقي بهذا الضيف في الطريق ولكن الخوف كان يردعه • ذلك أن هذا الرجل المسن المحترم وعد الساحرة السيئة في مرحلة سابقة من حياته وعدا ما ، وها هو ذا مطالب الآن أن يقدم ابنته وفاء للوعــد•

يحدث أحياناً أن يكون جزء من باب الردهة مصنوعا من الزجاج وعليه ستائر من حرير • ولشدة اهتمام التاجر فإنه بعد أن ترك الغرفــة اختبأ وراء الستارة الحريرية •

لاريب أن الغريب كان رجلا من هذا العالم ولايجوز أن يأمن الاهل في ترك ابنتهم الصبية مع رجل دون مراقبة النتائج . ان التاجر الكريم الذي خبر كل أنواع الناس كان قلقاً . ولكن بولي الجميلة لم تشعر بكل هذا . طافت البنت وضيفها الشاب الرقيقان في أرجاء الغرفة وكلما طالت الزيارة ازدادت الفتاة الجميلة انبهارا حتى لقد وقعت في شباك الحب منذ ربع الساعة الأولى .

تأثرت بكل ماقال ذو الريشة ومافعل . وكانت النجمة في صدره تأتلق ، والشياطين الصغيرة ترقص ببهجة على غليونه .

وشيئاً فشيئاً أخذ ذو الريشة يهدأ ، كأنه يريد أن يتحقق حب الفتاة الكامل . وبدأت النجمة تخبو وأخذت ثيابه تبدو أقل جمالا .

رفعت الفتاة عينيها ونظرت الى رفيقها نظرة ملؤها الاعجاب ثم نظرت الى المرآة كما لو أنها تريد أن تقارن بين جمالها وجمال صديقها . وإذا بها تصرخ صرخة وتسقط مغشياً عليها .

نظر ذو الريشة في المرآة وحينئذ عرف حقيقة نفسه قبل أن يفعل السحر فعلـه .

أشفقنا عليه جميعنا وهو يرخي ذراعيه معبراً عن اليأس . كانت الأم ريغباي جالسة أمام الموقد في مطبخها . وكانت قد انتهت لتوها من تحريك الرماد في غليون آخر عندما سمعت خطوات مسرعة في الطريق خطوات تشبه العصي أو العظام الجافة ودمدمت : ها ! أي خطوات هذه ! إني لأعجب أي هيكل عظمي خرج من قبره الآن ؟

واندفع التمثال برأسه الطويل من الباب . إنه ذو الريشة . غليونـه ما زال مشتعلا ، والنجمة تشع في صدره ولم تكن ملابسه أضــاعت مظهرها الفني ولكن كان يبدو أن ثمة خطأ ما .

ســألت الساحرة : « ماذا حدث هل طردك المجنون العجوز من بيته ؟ سأعاقبه شر عقاب حتى يقدم لك ابنته جاثية على ركبتيها . أما اذا كان ذلك منها فلسوف أدمر جمالها خلال أسبوع » .

أجاب ذو الريشة المسكين : « دعيها وشأنها ياأمي ! لقد كدت أحظى بها وقبلة من شفتها العذبة حرية بأن تقلبني انسانا حقا . ولكني رأيت نفسي ياأمي ! رأيت نفسي أي شيء فقير فارغ أنا . لن أعيش بعد اليوم ! »

ورفع الغليون من فمه وألقاه بكل قوته نحو الجدار وفي اللحظة نفسها كان يحور فوق الأرض كومة من القش والثياب الرثة والعصي .

قالت الأم ريغباي : « ياصديقي المسكين ! ياعزيزي المسكين ! يــاذا الريشة ! هناك الآلاف الآلاف من البله الحمقى الفارغين في العالم ليسوا أفضل منك . ومع ذلــك فهم يعيشون محترمين . ولم يــروا أنفسهم مطلقاً ولايعرفون أحوالهم . ماالذي دعا مسكيني هذا أن يرى نفسه ويموت من أجل ذلــك ؟

وكانت تعبىء غليونا جديداًمن التبغ وهي تقول ذلك وتمسكه بينأصابعها حيرى هل تضعه في فمها أم في فم ذي الريشة . وتابعت تقول :

« ياذا الريشة المسكين ! أستطيع بسهولة أن أعطيك فرصة أخرى وأرسلك غدا مرة ثانية ولكن لا إن مشاعره كانت رقيقة جداً . كان له قلب أكبر من أن يحتمل الحياة في عالم فارغ لاقب له .

حسناً . سأبقيه فزاعة .

عَمَلُ الفزاعة بسيط ومفيد وسيتقنه هذا الغالي العزيز . ولو عمل إخوانه من الناس بالجد الذي تعمل به الفزاعات لغدا العالم أفضل مما هو عليه . أما هذا الغليون فلعلي أشد حاجة إليه منه . وضمت الغليون في فيها وهتفت بصوتها المرتفع الحاد : ديكون شعلة لغيوني !

مختارات من الشعر الألباني في كوسوفا - يوغسلافيا

● ترجمة : خليل قريبات

فرع مقصود

الشعر الالباني في يوغسلافيـــا

« للشاعر صبري حميدي »

المقدمة :

الشعر الألباني في يوغسلافيا ، الذي سنكشف أحد وجوهه في هـذا المؤلف ، هو بالحقيقة شعر حديث جداً . البرهان واضح في ان جميع شعرائه من أقدمهم : أسعد مخولي ١٩١٦ الى أصغرهم : صبري حميدي ١٩٥٠ . كل هؤلاء لايزالون أحياء حتى أيامنا الحاضرة ، ولايزالون يكتبون !!

الغاية من عرض شعرنا هي ابراز أحد جوانبه ، لذا يجب اعتبار هـذا المؤلف بمثابة أداة اعلامية متواضعة ، لامختارات شعرية صافية . كما تجدر الاشارة الى ان المقصود بهـذا ليس الشعر الناشيء بعامل الصدفة بل هـو

الفرع الشعري ذو العلاقة بالأصل العام للادب الالباني ، المتضمن تقاليدقديمة مكتوبة منذ خمسة أجيال اذ بدىء به منـــذ عام ١٤٦٢ أربع مائة واثنـــين وستين وألف •

لانقصد هنا تقديم تحليل مسهب لهذا الشعر ، بل سنجتهد ببساطـة وبأسلوب مدخل الى القراءة : ان نعرض باختصار النقاط الرئيسة التـــي تغذّيه وتوجّهه ، والصفحات القادمة المشرقة تظهر ذلك بوضوح :

النقطة الأولى : البحث عن الهوية الأدبية ، الوطنيّة والفنيّة • وهذا البحث يستند الى أسباب أدبية وأسباب أخرى كثيرة لن نوضّحها هنا •

يُبحث أولاً في هويته حيث لا يُعترف عليها ، وطرق البحث تعتورها مشاكل وتتطلب تضحيات • ومن خلال كل هذا يتلاءم الشعر بكثير مـــن الوضوح مع فكرة العذاب والألم والتضحيـــة ، مشدوداً شداً وثيقـاً الى مواضيع أخرى قديمة العهد ، ظهرت في رقصات الغناء الشعبيّة الألبانيّة •

أليس التاريخ تكراراً مستديماً لكل قديم وله ارتباطات وثيقة بالماضي وبتاريخ وطني دائم الحيوية ، ودائم الوجود • وهذه الارتباطات تغـــذّي وتساعد على بحث الهويّة الأدبية •

كل هذا يتلاقى في صميم البحث المطلوب ، في المؤلفات كما في الأغاني الشعبية ، ويطالب بايجاد هذه الهوية الشعرية والفنية التـــي تكوّن مفخرة شعب •

غالبا ما يلعب الشعر دوراً هاماً بتقديم دليل ، وتسجيل تاريخ ، أو أنه يثبّت بشعر منظوم : الغنى الرائع الذي يتضمنه التقليد القديم الشفوي والشعبي . ولا يغرب عن بالنا أبداً ان شعر اليوم لم يعد ليملأ ما يتطلب منه من واجبات في أماكن كثيرة من العالم .

ان ارتباط شعرنا بالتراث الشعري الألباني الكبير ، يتقوى يوماً عن يوم ، بقدر ما يتحمّس الشعراء ويشذّون شعورهم الوطني . وهذه المسيرة تتضح وكأنها تخليد ، أعني تقدما مولّداً مجدداً وليس تكراراً قاحلاً .

اننا لا نتصدى هنا إلا لأفنان شعرية صادرة عن أرومة عامة أصيلة مسؤولة ان تكوّن جزاءاً منه .

اذا فرضنا ان الشعر نتاج حريّة وألم ، نتمكن من القول بالمقابل دون ريب ، ان شعرنا الألباني ثمرة تجربة .

لا يمكن لأي متطلّع التعمّق في المستقبل ، اذا لم يكن قد أقدم على ذلك في الماضي ، الماضي الذي كان قلقاً بالنسبة لنا طيلة أجيال سحيقة ، وغالبا مايضفي هذا التعمق واجهة قائمة على فننا . ومن هنا نجم موضوع أساسي واصبح على وجه التقريب فكرة ثابتة : حريّة الخلق ، أعني حريّة الكتابة ، وحريّة التأليف والنشر وايجاد فرصة للقراءة والمطالعة .

اكتسبَت هذه الحرية بفضل ظروف اجتماعية مناسبة ، في حين انها كانت غالباً وأبدا غير موافقة بالنسبة لنا . ولا نقصد هنا الحرية بمستوى

الكلام المقول ، أوبطريقة أفضل : صياغـة التعبير الشعري . تتمكن مـن الملاحظة منذ بدء البحث ان القصائد اللاحقة تتضمن مواضيع خطيرة ورصينة (ولنسمّها هكذا) أعني حيث يغيب الضحك وتكون الغبطة قليلة الوضوح والرؤية .

وفي هذا المجال ، يمكن اختصار المواضيع الواردة سابقاً في موضوع رئيسي أساسي : هو موضوع الصمود ، الـذي يأخذ هنـا شكل ومعنى اسطورة ، تختلف كما يبدو لي عن اسطورة الصمود البلقاني العظيم . فمهما تعدّد الشعراء وتميّز البعض عن الآخر في أيامنا الحاضرة بشخصية خاصة . وبرغم هذا الضياع الذي عاناه الشعر فانه استطاع مع ذلك النجاح والثبات متّبعا طريقاً أصولية وتطوريّة . حدثت هـذه التغيّرات في مستوى شكل اللغة الشعريّة ، وكانت قليلة جداً بالنسبة لموارد الإلهام ومراكز الإفادة أو الاستفادة . فيلاحظ نوع تطابق مباشر بدءاً من صرخة عميقة . أو وضوح ألم ، معلنة بهذا الشكل المؤثر جداً :

« كوزوفا هي دمي الذي لا يهدى »

زد على ذلك ، تحتّرر اللغـة ، نتيجة رؤية واضحة للعالـم ، ويصبح هذا التحرّر عبارة للمعنى الخفي للأشياء ، أعني الذي يظهر في كل المواضيع المتنوعة ، بطريقة معنوية ، ورمزية حيث يتغلّب المجاز :

« يمكن طعن المضحّى به في القلب »

كما يتمكن الشاعر من سلوك طريق التهكم غير موفرّ حتى نفسه . وقد

يصل به التهكم حتى على نفسه ، فيصيغ بجدارة مفهوم عالمين متعاكسين :

« تحيا الحريّة دون سقف في أعلى الرؤوس »
« دون شمس ، دون مطر ، دون ... »

بالإضافة الى تفتّحها الغريب نحو الشعر العصري الذي ينشر اليوم في العالم فالشعر الألباني غيّر قليلاً من الأثر الأدبي الذي تسبّب في غالبيّته من العهد المأسوي .

يجب اذاً ان نقرأ في هذا الشعر ، التعبير الكامل عن صراخ الألم ، والتعظيم الكلي للبحث عن الحرية ، مع الضحايا التي تتطلّبها ، وبكلمة مختصرة : المأساة كاملة .

موضوع حصري : الحريّة . والشعر : نتاج الحريّة . نأمل في أن الشعر الذي سنعرضه هنا سيكون بالنسبة للقارىء تصويراً كافياً عما سبق إيضاحه ، ويسمح له كما نرجو أن يتأكّد من ذلك .

(هذه المقدّمة للشاعر صبري حميدي : وُلد عام ١٩٥٠ في دومنيسه (بودجيفو) ـ نشر : « الرجل يموت صغيراً » عام ١٩٧٢ ـ « صفحات ونهاية » عام ١٩٧٣ ـ « سكين النسيان » عام ١٩٧٥ ـ « متفرقات » ١٩٧٤ ـ « نصّ بلغة مسرحيّة » عام ١٩٧٨ ـ « مائة عام من العزلة » « رواية عام ١٩٧٦ » ـ في دار النشر » (ريلينديا) .

١ - حنين الى المستحيل

« للشاعر اسعد مكولي »

تهيم الغيوم في الأعالي ، كالخراف على الروابي •
بينما الحنين الى المستحيل يخصّني وحدي
كنت أرغب في الاشتراك بدوّارة الغيوم الحمراء
وأطير الى الجانب الآخر من الأعالي الرائعة
فرحاً بأغنيّة رعويـة •

عندما يبزغ القمر ، ويشرف فجأة على الوادي
وتئن الأرض مع الليل
كأشعة فضية على السنابل
أجبَر على الذهاب لرؤية زوايا ألمي المخبؤة ، وأمكنة عذابي

آسف أن اشترك في دوّارة الغيوم الحمراء
وقلبي الطيّب يتمنّى ذلك •
فليصرخ شبابي بكل قواه
وليتفجرّ حنين قلبي المتألم

ولكن لِـمَ ينبض قلبي بتأثير صوت متقطّع
والخوف يهدم نفسي بعمق ؟

لم أرغب في تأمّل الغيوم تعلو المدينة
بينما ان الحنين الى المستحيل يخنق أنفاسي ويدمّرني •

٢ ــ الأمـل

« للشاعر اسعد مكولي »

أضطربت الأمواج المزبدة طيلة الليل
والمنارة أعطت الاشارة

والناس في فردوسهم الوهمي
غارقون في سبات عميــق

ممتدون ــ في مهادنة قصيرة
لمعركة حياة أفضل ــ يجب إيجادها

أبيضّ الفجر ، ونور الشمس أطفأ المنارة
واستيقظ النورس على الصخور

والناس وحدهم ــ لا يزالون بانتظــار
أمــل أحلامهم اللامتناهية
وحال ضجرهم ، تهزهم الحقيقة

٣ ـ الحلـم

« للشاعر أنور جيّركوكي »

نخرج من أحلامنا متعرّين كليـاً
عندما تهبنا سماء غريبة فجراً جميلا
من حيث تتدحرج على الطريق هذه الكوارث الخصبة
إذ تنشقنا الريح ويبرّدنا اليمّ

ضوضاء النيـل تخمد في صدورنا
وتحت ورق الأشجار الشفّافة ، يَكُدّن الحصان بعربة الجنوب الثقيلة
فيتصاعد الغناء كظماً العشب والمغث للمـاء
كنّا واثقين بأنفسنا ، من سيقطع الزهرة
عندما تتلف عظامنا ، وداعاً أيتها الجذور النبيلـة
نكون قد تلفنا وتبدّلنا ... سيشرب الليل كأسه دون خوف أو وجـل
الصيف قصير ووهمي ، من سيهتمّ بنـا
دون شفقة أو رحمة ، يخز الصبّير عظامنا المبيضّة
على حافة المر ، تحررت خطوتنا

٤ ـ إبكار

« للشاعر أنور جيرَكوكي »

أين تهيم أيها الطائر الثمل في جوف درب ضيّقة
من سيرث ريشك البهيّ الجميل .
من سيلاحق اذاً ـ وعلى مدى السنين ـ بعمرك
الألق السرمدي المشرق من كل صوب

سيذهب الصوت في الغسق نحو الاعالي
سيرتفع فكري معك دون انقطاع
لأنك ستعيش مدى الزمان دون لوم
أنت مولود من نور في هذا العالم المتعامي عن الحقيقة
أين تتيه هكذا والنار تلتهمك
ومع طيرانك البطيء جداً تتقدم خطوتي الحرّة
أقدم لك جانبي المغمور بالجليد
وحتى تتمكن من صنع قارب ومنارة
وتضطرم فينا أخيراً النار المتأجّجة
أين أنت الآن ياسرّ السلف ؟

٥ - الرمل

« للشاعر عبد العزيز اسلامي »

قدّمَ لنا رمل الشمس نارا
ورمل القمر قدّم لنا نعاسا

من يستطع القول
من يستطع القول ان الرمل لا يفقه شيئاً
إذ كل شيء في الوجود غنيٌ بقسمته

٦ - دعاء

« للشاعر عبد العزيز إسلامي »

مع ترنيمة أولادي
سأعرض لك أيها المطر أرجلي المدمّاة

وفيما أولادي يغفلون ويحلمون
سأعطيك أيها المطر أذرعي المكسّرة
سأعطيك عينيّ المظلمتين أيها المطر
سأهبك نفسي كاملة أيها المطر
كي يستطيع بذاري التأصّل فيّ

٧ ـ أغنيـــة براها

« للشاعر دين محمدي »

لم ينقطع براها عن الغنـــاء
رغم تغضّنات جبينه المسنّ

تابــع براهــا غنــاءه
جاعلاً على كل طريق حيّة تحرس

ثابر براها على الغناء
وقد مضغت الطرق جزءاً من حياتــه

ورغم معرفته نفسه حتى في كل حجيرة من جسمه
لم ينقطــع براها عن الغناء

بكى النور المتحطّم في عين الفجر
وما كان براها ليتوقف عن الغناء .

ذات يوم أحرقت الصاعقة كمانه
ولم يكن براها قد أنهى أغنيته .

٨ ـ الدعـوى

« للشاعر دين محمدي »

في دعــوى غير موقّتة ،
وجدوا أن سبعة مسامير صدئة
قد ثقبت اسماء َنا .
أسماؤنا المـّماتة ، وهياكلنا العظميّة مدلاّة في متحف همجي

دعــوى ــ جمجمــة .
وآخرون كثيرون ــ جبل من عظــام
والحياة المرتعدة كانت تبتعد مع غبطتها الوهميّة
كالظلال التائهة ، فوق منظر حزين
أصبح أحدنا كالمجنون في الدخان
لأنه لم يكن يملك الثقة بنفسه منذ مائة عام
ولأن الموت لم يكن يَنْشده ، لا في حينه ولا الآن
دون أغنية حزينة .

دعوى ــ جمجمة ، وآخرون كثيرون جبل من عظام
والحياة مكبّلة بين أخاديد الجحيــم .

٩ ـ هـذا الصخر

« للشاعر علي موساي »

تصدّع الصخر ، وتصاعد قلبه الى جبيني .
وزد على ذلك فان أحدهم هزىء في ضريحه من لعبته
على هذه الأرض التي لا تفتأ تخضرّ .
لكنّ قطرة الناس قد انحسرت
نعم لقد تشفّوا من الترّهـات العتيدة
والأشمّة الشاحبة .
هذا غير مهم ، فليتفجر هذا الصخر وليتصدّع
بقلبـه وتفسه على جبيني .

١٠ ـ تخلصت مـن الرؤيا

« للشاعر علي موساي »

خلال الأجيال المثقلة بالهمـوم
لم أبالِ برؤيا كريهـة
هذه الكلمة التي علّقوها هم فوق عظام الصمت
فوقنا وتحتنا ـ كعصف جلاجل شديد
وعلى أجنحتي المتينة ، خلال الضباب الكثيف

بين الأشعة القاتمة ، تخلصت من الرؤيا
واستعاد الصمت كلامــه .

١١ ـ في الانتظــار

« للشاعر باسم بوكشي »

أنتظرت حزيناً ــ كالصخرة ــ كالنجمة المطلّة على الأفق
متأوهاً ، سنوات عدّة خلت
انا ناءٍ بعيد ــ هناك حيث الحياة تعانق الموت
هناك اجترّ أيامي المشرقة .
عند عودتي ، ربما انها ستجدني قد تقدّمت في السن
ولن أستطيع الابتسامة كنسيم الربيع
لكنّي أستطيع أن أموت ، لا سيّما من الفرح

١٢ ـ الاربعــاء

« للشاعر باسم بوكشي »

لست أنا منذ الآن سوى صدى متصاعد
لرجل وُلد يوم الاربعاء ، ولن تستطيع ان تجدني في أي مكان
وباكراً جداً يأتي الاربعاء ، جالباً وراءه الأحد الكبير

الذي يقطع رنين كافة أجراس الحياة ••
ليقرب الثلاثاء ••• يا له من خطأ !! كم هو قريب الخميس •••
وأنت أيها الولد السعيد ، المولود يوم الجمعة
لن تعرف أبداً سر قصة الناس المولودين يوم الاربعاء
كم هو قريب الخميس ••• كم هو قريب الثلاثاء

١٣ ـ سحـر

« للشاعر آدم غايتاني »

ريشه بيضاء من غراب ـ ثلاثة رؤوس عظايات عمرها ثلاثة شهور
رجلان تماليتان لحية عمرها ستة أشهر ـ أربع بيضات تدرج لم تفقس بعد
شعرة دقيقة سوداء من ابنة صهباء ـ سبع دوريات زيز من اليوم السابع من تموز
ذيل سلحفاة عمرها سبعون عاماً ـ بهجة شاهدة قبر عذراء
حلام عروس دون ليلة عرس ـ سلطعون من اليوم التاسع من شهر آب •

عندما يبتلع الفجر دجنّة الليل، علّق كل ما مرّ بلا ترتيب بعقد حبل
وفي وسط الليل الفسيح الأعمى ، ضَعها كلها تحت ذراعك الأيسر
فيما عينك اليمنى مغمضة وغافلـة •

١٤ - الشجـار

« للشاعر آدم غايتاني »

عقربك وسلطعوني يتشاجران ، ويعطلان أقواس قزح غير مرئية
ثعبانك الأصفر ، وحيتي المخططة ، يختلطان بالسمك الأبيض •
عنكبوتك كبير الرأس ، ينسج قماشه بأناة •
بينما سكيني المؤذي يمزقه الى قطع كالحرير
مديحك يتخلص من البحر ، ويعكر غيوم السماء التاسعة

أنا من جهة ، وأنت من الأخرى ، نسحب دون جدوى
دون الوصول الى قطع خيط السلام •
اننا مبحرون ، أنت في الصباح ، وأنا في المساء
وستلاقى في سمت النهار •

١٥ - الجسر

« للشاعر محمد كرفيشي »

هناك جسر يبدأ بي ويعيدني الى طفولتي الضائعة
ويوصل حنيني الى وطني

وهناك جسر يبدأ بي حتى يصلني ببيتي الصغير
وفوقه تعبر أمي العاجزة •

وهناك جسر يبدأ بي ويربطني بفتاة أحلامي
وعنده يظهر اصطباري وانتظاري

١٦ ـ المفتــاح

« للشاعر محمد كرفيشي »

في خلايا الصّدف ، تجثم التطلّعات
وعندما يُقبل غنائي ، يظهر مفتاح نغم آخر
ويتسرّب الألم الى قلب مغلق ••
مفتاح مجهول : بابه هديّة الانتظار

١٧ ـ الوجــة

« للشاعر فخر الدين غونقا »

هامت بحبٍ جنوني للصخور ، فارتطمت بها كالمرأة في ذروة الانتعاظ
حاملة بين ذراعيها فرحة البعد ، والتاريخ الكاذب للجمال و •••
تنشأ في جوف البحر ، كطفل ابن حرام ، نتيجة خطيئة مجهولة
حبلى بتبعةٍ خادعة لأجل الحياة و •••
تنساب كاللص في أحضان الصخور
وتلتصق بصدر ممزّق لمحارب قديم و •••
وتكذب ولا تملّ الكذب و •••

الكذب لعبة الأمواج .
ـ لعبة المدّ والجزر ـ والولادة والوفيّات و ...
تدهشها رطوبة الصخـور ،
وياله من خداع بتظاهرها التعلق بالمصور .

١٨ ـ الصخـرة

« للشاعر فخر الدين غونقا »

عالم مسن ، مغضن الجبين ، جلس يفكر بماضٍ يتجدد دون انقطاع
يكمن صموده تحت أظفاره ـ كم من رؤى تحطّمت دون شفقة
أو حنان أمام جبهته المتغضّنة و ...
وكم من موعد أبطل ، أمام صمته الجمّ ـ .
فيلسوف قمين بحكمة الحياة ، دوما يلفه السر
انه يعتقد : ان الزمن أحسن صديق له .

(لا لأنه يحمله كريشة) ـ بل لأنه لا يفقه منه معنى أي كلمة سوى كلمة السلام .

لا الأمواج كالبغايا بلون زرقة السماء
تتمكن من تهدئة روع قلبه .
ولا الصبايا بعيونها الزرقاء ، التي تعانقه ببرود
تتمكن أيضاً من إبعاده عن الحكمة ،

لأنه : كعالِم مرموق وذي تفكير صائب ،
أكتشف منذ أجيال كنه الحقيقة .
لكنه لم يَقُلْهُ ، ولم يكشف عنه .

١٩ ـ التفاحـة

« للشاعر كريم أويكاني »

انظر كيف أن التفاحة سقطت عند قدمي
وكيف ان الغصن المنفرد أخذ يفكر
من دلها على ايقاف خطواتي التي زلّت أمامها
وأمام جميع الأشياء ، التي نوت الرحيل ،لكنها لم تنطلق أبداً
من دلها على زرع البذور السوداء وايصالها اليّ
بكل مالهذه الكلمة من معنى .
هناك حيث كل شيء بعد دورانه حول العالم
يعود إلى نقطة انطلاقه ؟
لم تكشف أياً من يديها ، ولم تتر لذوق أي لسان
ولم تبسم لأيـة عـين ....
من منحها كل هذا الجمال الكامن في شكلها ، وعذوبتها
ومعرفة كياني الذي وهبها إياهـا
وخلّفت الغصن المنزوي وقد تأهب للتفكير

٢٠ – العصفور

« للشاعر كريم اوبكاني »

سيتبدل كل شيء ، لو لم يكن هذا العصفور
انه الوحيد الذي يعرف بدء عذابي منذ الفجر ..
هو يجهل من يفتح لي أبواب عهدي :
أيـة ريح ، أيـة يد ، أيـة كلمة ، أي زمان ؟
وهو وحده يأتي لإنشـاد سامفونية رغباتي
بدونه ، لست أدري هل أصبح ما أنا عليه
ربما ان كل هذه الأشياء ستحمل أسماء أخرى مختلفة
انظر إليه يرسم الآن المجاعة المحلاة في سماء مفرغة
نافضاً بأجنحته غبار برق ، يقول « وداعاً لكل تطلعاتنا »
لن يتلون الحنين بلون لعشب
ولن يتقن الألم الغناء في سهلي المتموج

٢١ – الكلمـات

« للشاعر آظـم شكريلي »

أشيد معك ، حجراً فوق حجر ، السور الصيني لثقتي بالانسان
في عتمتي وفي الأشياء اتي لاتتعرف عليّ ـ أصع حجراً فوق حجر
على الأفكار ، على الصمت الذي لاأومن به

وعلى مالايمكن قوله عن الحمل ـ أضع حجراً على حجر
على ألم الانتظار ، وعلى الدم الذي لاأغفره لكم
على الآثار القليلة التي حفظتها في الطريق الخطرة
على خطيئتي وخطيئة « عيسى » التي لم أرتكبها
لأجلك أضع حجراً على حجر على كتفيّ ، على الخبز الذي لاينهرس
على سنوات والدي الملتوية ، أضع حجراً فوق حجر
على كل مالاأملك
على كل مالاأستطيعه
أضع على رأسي حجراً فوق حجر ، وأقسم يميناً

٢٢ ـ العلل الصفراء

« للشاعر آظم شكريلي »

ابتعدي عن دمي أيتها العلل الصفراء
ابتعدي عن دمي ، أو أننا سننشأ في مرة قادمة بين نباتات أخرى •
هنا وهناك يرتفع السرو ، متفاخرا بمكان ولادتي
ترتع فيها الخراف البيضاء ، ثاغية ، في الكلأ النديّ كالحليب
ابتعدي عن دمي ، هنا وهناك تغرد العصافير ،
زغبها حلو ، ريشها أخضر ، والينابيع المثلجة ، ينابيع الماء الصافي
هنا وهناك تلهو الصبايا ، من كل لون جميل ورديء ،

الصبايا باهرات الجمال يقدمن حبهن الباكر الماكر
ابتعدي عن دمي أيتها العلل الصفراء
هنا وهناك ، ليست العيون وحدها التي تموت
ترتجف كلماتنا وأصابعنا ـ ابتعدي عن دمي ،
الأفضل أن تبتعدي عن دمي لأننا في مرة قادمة :
سننشأ في أحضان نباتات أخرى

٢٣ ـ العنكبوت

« للشاعر رحمن ديماي »

تبدأ لهوك من النهاية ، كي تصل إلى اسمك ،
الذي تكتبُه بعُقَد وخيط سحري
تسلك جميع الطرق ليلا ، والملائكة تسهو عن المسير
تحوِّلُ كل الطرق إلى أقواس ، تَحيكُ الحلقات وترقمُها
وتُسمي العُقَد
تنسجُ قماشاً عجيباً جداً ، ومن أعماق هذا النسيج ومن خلاله
تتقصى عيناك وترقب ، كعيني صياد جائع
تبني الحياة ، وبفضل أقواس وحلقات ، لايمكن قياس قطرها
حسب المعادلة المعروفة : ٢٢÷٧ـ٢ر •

٢٤ ــ الكلب

« للشاعر رحمن ديداي »

يعدو وراء البرق ، لايبلله المطر ــ سيجد صديقه
يدور حول الشجرة السوداء ، ويتثبت بظله ــ سيجد صديقه
يحاول خفاش لمس رأسه ــ سيجد صديقه

٢٥ ــ غيرة الماء

« للشاعر ميركوغاشي »

عندما الساقية تعانق النهر ، تموت هناك حيث يجتمعان
ويتحول الموت الى جزيرة ، وتتصالح السواقي في النهر
بعد عناق النهر والساقية ، تغيب العنقاء عن العين
تختفي وتختفي عبر الزمن
معلنة عن كل موت ، وعن كل ولادة

٢٦ ــ انتقام الماء

« للشاعر ميركوغاشي »

بعد أن أرعبته العاصفة ، أصبح العصفور فريسة رؤيته
إثر عراك الماء والنار ، توجهتْ نحو الغابة

على ضفة النهر ، تتمدد ظبية
تحيط بها طريق المخاطر ، وفي النقطة الصفراء يقترب الموت
بينما تثغو الخراف ، وتصر الريح بأسنانها ، أمدُّ يدي نحو النار
عينان اثنتان ، تلتمسان عون النهر ، الذي يتوزع إلى ألف رافد
انه حيّ ، لكنه منهــك
أنا آتٍ الى كوخك ياابني لأخبرك ان الظبية ممددة •

٢٧ ـ الهـرّ الاسود

« للشاعر علي بودريميا »

تبعني هر أسود ، طيلة سفري الطويل
قالت لي نفسي : انني سأقفه في نصف الطريق
وقالت لي القصيدة : لن تغنيني أبداً بصوت مرتفع
وقال لي النور : الأعمى سيبقى أعمى
رأيت مناما وكأنه يقول لي : فتش عليّ في الحقيقة
لكن تعال وصرح بهذه الكلمة ، لأنك لاتعرف من تحب أو تبغض
تعال وثق ببريق وجهك
هر أسود تبعني ، خلال سفري الطويل
يدل على ساعة المصير

٢٨ ـ عُدْ الى اشعار هوميروس

« للشاعر علي بودريميا »

عُدْ الى أشعار هوميروس ، عُدْ من حيث أتيت
عهدك قد ولى،
عُدْ وحرر الناس من أنفسهم ، ومن الظلماتِ
حررهم من أقنعتهم ، ومن الهزيمة
حررهم من سهادهم ، ومن الصمت
حررهم من اضطرابهم ، ومن الأمطار
لقد ولى عهدك
عُدْ الى أشعار هوميروس ، تروادة سقطت منذ زمن كيف
والناس لاينشدون بعد نشيد التحرر

٢٩ ـ الأسماء

« للشاعر موسى رمضاني »

الأسماء لاتشبه الأرقام ، تميزنا الاسماء عن بعضنا في الحياة
وتفرّقنا عند الموت ،
ولا أعلم كيف يقال أن ليس لديها فوارق
حتى لدى من لم يجيء الى العالم باسم ومن يذهب الى حتفه دون اسم
الاسماء لاتشبه الأرقام

تكتب الاسماء أو تمحى وتحفظ بصعوبة
عندما تجبر على وصف العصور والعهود

٣٠ – حـوار

« للشاعر موسى رمضاني »

هناك رائحة ياجار ــ رائحة كريهة تطغى عليّ
يالها من رائحة قوية : رائحة الدم
حقاً أجاب الجار : ان هذه الرائحة قوية وقوية جدا ومكانها عميق
هذا صحيح أجاب الجار الاول : ان مكانها عميق وعميق جدا
آه ياجار ان الدم رصاص
أجاب الأول ان الدم أثقل
ــ والكلام أثقل أيضاً من الدم
ــ أثقل بكثير من الرصاص أجاب الثاني
فآه من الدم أيها الجار وآه من الكلام

٣١ – السّبت

« للشاعر ابراهيم قادري »

الندى وكل مايحيط بي ــ سيُقبّل رجليّ المرتاحتين
بينما الكلمات الجريحة ، ستبقى في ساح القتال دون أية اغاثة

يتكبر السبت على المائدة وأخذ يحيي الوجوه والمرايا
شعري يغتسل العينين ، ويخرق العطش بالتضحية
يخرج خصيصاً ليسرق السبت ، ويجعل فيه كل مغامرات حبه
يستعير من الأرصفة ضجة خطاها ، ويحولها الى أنغام موسيقية
ياله من إلهام « بندريكي *Pendreki* في الأيام الغابرة
التلال المشجرة تستقبل المدعوين الى العزف على القيثار
بينما ان الشعر يوجد ثانية ليعانق الأبديـة

٣٢ ـ عـودة الى النسيان

« للشاعر ابراهيم قادري »

بيتي ومايحيط به محروم من الفلسفة
أبي وأنا قطبان متقابلان
لاتصل الكلمة الى نهايتها ، بل تأخذ لون السناج والدخان
ليس للمضاحكة قيمة ، ولا للغناء ، فتبقى سوداء
عودة الى النسيان في مقطع رأس
هناك في سلسلة الجبال ، سبعة جبال ارتفعت
ارتفعت في اسطورة مسمومة ، في البارود ، في الرعد
وكل العالم وقف ضد والدي ، لأنهم كما يقولون :
وان كان مائتا ، لايفتأ أن يثور
نسيان العودة الى مقطع رأس

٣٣ ـ الهيكـل المنفـرد

« للشاعر باكير موصلي »

شاد أحدهم هيكلاً في أعلى الجبال الكريهة
وبكى كناسك متزهد أثناء غفّارة حزن وندم
وآخر خلفه التنين الساخط ، جزّأ السماء الى قطع
لاأعلم الى أي عهد يعود هذا ولاأية اسطورة ترويها الجدران
قضى الصيادون صيفهم ولم يتخلوا عن بنادقهم
ورثوا حبّ الحكماء الضائع
لم يجر النهر نحو المصب ، وتعلق بأقدام الهيكل
سُحِبَت أسنّة السيوف تحت تأثير الحقد ، والتهمه الناس بألم رهيب
ونمت كتباتات في أرض مشاع
أبطال الألم أُقفِل عليهم ، وأنت الجدران
عند تقديم مسرحية النسور المنزوية ، تلك المسرحية اللعينة
بكى أحدهم بمرارة حياته التاعسة جداً
ثمّ رحّب بالموت القريب الذي ظهر كثير الحنان •
نمر أسود وقد هيجته رائحة الدم في الهيكل المشاد
التهم الزهرة والحارس ، بكل هول الجمال
ورافقت العاصفة الكلمات الصوتية للبكاء الموزون
وبقيت هكذا مهيمنة في أعلى هيكل الجبال اللعينة

٣٤ – وراء الستـــار

« للشاعر باكير موصلي »

ماذا يجري خلف الستار ؟ خلال متابعتنا المسرحية
ربما يُطعن المضحى به بخنجر في القلب
وينصبّ أحمر وردياً في اناء مجفّف
ربما يموت أحدهم ويدخلوه ثقب إبرة

تخيل مكان ضريحه غير ممكن ، الله وحده يعلم في أي بيت
يمكن أن يشرب أحدهم الكأس المسموم
فنزمجر كلنا بصوت واحد : هملت

نستطيع أن نقول له بتأثر : يالها من لعبة سحرية
يمكن أن يضحك أحدهم وهو يمشي على حبل هوايته المنصوب

تتحول الغرائز الى شيء مؤلم يدعى مأساة .
فيمكن أن يُهيننا أحدهم فهزاً بدوره

الانسان يقوم بدوره من خلال قناعه
ربما لمهرج أن يبكي لأغانينا التي ليست على شيء
فنتمكن من ترديد البكاء الذي يرتسم على أحد الوجوه

يموت أحدهم فنزمجر كلنا بصوت واحد : ماأعظم هذا !!!

عندمقارنة سحره بلعبة لا نهاية لهـا
يتمكن الطائر من الانتحار باسم الفن الظاهري
وهكذا خلف الستار يمكن للحياة أن تلعب أدوارها ومتناقضاتها المحزنة المضحكـة

٣٥ ـ المدخـل الى مفهوم كلمة العزلة

« للشاعر اكرم باشا »

في جهة ما يرتفع بيت مهجور
جدرانه مشققة وسقفه منحط
في حديقته جف العشب ، وتكوّم الغبار
أما بابه فثابت راسخ وكلب يحرس في أعلاه
رجل مهمل قصير القامة ، لحيته محلوقة دون اهتمام
شعره أشعث ، انه يستدير ، يستدير وكأنه مجنون
وجه تائه في التأمل ،والأمل مفقود
يفتش عليـه كلبـه

٣٦ ـ الارض

« للشاعر اكرم باشا »

أيتها الأرض التي منحتِنا الرطوبة ، وغذّيتنا بجذورك

لطفاً افتحي لنا قلبك ، واذا تمكنت فتطلعي في وجوهنا

أيتها الأرض الحنون التي أعطيتنا النور
والاهتزاز عند التفكير في النـــوم
عودي لنتمكن من رؤية تصدعات ظهرك
بسبب الشمس التي لاتنفك عن تجفيفك

أيتها الأرض المنهكة التي وهبتِـنا الراحة
وحياة لاتزال مجهولة لدينا
اسمحي لنا بتأمل السماء التي تعلوكِ
واسمحي لنا أيضا أن نتيه في أعماقك

٣٧ – قطع عضــو

« للشاعر نشات حليمي »

لم يَعدِموني بالفجر ، جسمي دون رأس
قطفوا وردتي المدماة
أبحث عن مأوى خلال العالم الفسيح
الخضرة تغشّي بصري ، ويؤجج العطش تغضنات جبيني
الذي تملؤه العزلـــة
وهناك فيما وراء النهر ، أضعت الأحد « يوم عطلتي »

وسلبوني أيضاً يوم الاثنين
ابحث عن حظي خلال العالم ــ وعما سيجلبه يوم الثلاثاء

٣٨ ـ المـوت في الصّيف

« للشاعر نشات حليمي »

يخلف الأحد الوعد بيني وبينك
ينام على حافة النهر دون تفكير ، ملسوعاً من حية متعفنة بحوراء
يبحث البيت عن رأسي ، والوردة ذات العين الزرقاء
فصلها الخبز خطأ ذات ليلة
تلتصق اللمسة الباردة بالسّناج
أتناول قدح شاي في الشرفة ، وأرسم غزالا مع تفاحة على كل من قرنيه
وهناك في ملتقى الطرق من الشوصة القديمة ، يمارسون الحب .
سقوط آخر غصن في بستاني
آلهة وبنات ضائعين مائجين على حافة نهر ، وضعوه على الملح
وهناك في ملتقى الطرق من الشوصة القديمة ، أطلقوا كلمة مجهولة
إبّان فصل ما ، يبحث البيت عن رأسي على حافة النهر
ووردة الفجر في غرفة دون أصل
وثمــة شمعة تحترق على الطاولــة

٣٩ ـ دون شمس ـ دون مطر ـ دون ...

« للشاعر صبري حميدي »

صفرت الغابة أكليل زهر ، ولى النهار والصيف أيضاً
أقبل الخريف تباعاً بخضرته ، هبط الخبر على طاولة خشب رمادي
هجر الرجل أخته وأسرته ، بكى العشب المقتلع فتأثرنا له
تحيا الحرية دون حدٍّ في أعلى الرؤوس
دون شمس ـ دون مطر ـ دون ...
لا يوجد بعد شيء في نفوسنا ، لا خضرة ، لا زهور ، لا حيوية

تلتهم الزهور في الليل الكريه ، بسبب ألم قاسٍ
وأول أمنيــة تتحقــق

٤٠ ـ السكـين

« للشاعر صبري حميدي »

مَن يطعنّي بخنجر ، مَن يقتلعني ، من يوقفني ، من يشنقني ؟
يَحزُّ السكين في أعماق صدري ، فيجري نهر دم مجمد
يخمد النظر في بريق العينين
من يشنقني ، من يوقفني ؟
عيني هي عين الدهشة ، عند مرأى هذا العالم القذر
لا اليد ولا الظلام الدامس
مَن يقتلعني ، مَن يطعنّي بخنجر ؟؟

نبـــذة
مـن حيـاة كـل مـن الشعـراء
المشـتركـين بـوضــع القصــائـد :

١ ـ اسـعـد مكـولـي : ولد عام ١٩١٦ في بـلاف ومن آثــاره : لأجلك أنت عام ١٩٥٥ ـ وآفشا آدا ٠

٢ ـ انـــور جروجيكـو : ولد عام ١٩٢٨ في جياكوفا ومن آثـاره : آثـار الحياة ـ حدقة عين الغابة ـ أنغام طروبـة ـ تحضير المتأخر ـ عظمنا ـ شــرر الصوان ـ الرهــان ٠

٣ ـ عبد العزيز اسلامي :ولد عام ١٩٣٠ في فاير (تيتوفو) ومن آثاره: الريح والاشعار عام ١٩٦٤ ـ الاغاني الطروبة عام ١٩٦٨ ـ تأمـلات أرضيـــة عام ١٩٦٩ ـ الحصــى عام ١٩٧٤ ـ الفجــر في القريـــة عام ١٩٦٥ ٠

٤ ـ ديـــن مهميتـــي : ولد عام ١٩٣٢ في يونيف ومـن آثـاره : عـلى ساعـد الصخور ـ شبيبـة معرضة للشمس عام ١٩٦٦ ـ ذبذبـات النـــور عام ١٩٦٩ ـ الصمــت المكلّس عـــام ١٩٧٢ ـ الحـــظ عام ١٩٧٤ ٠

٥ ـ علي موساي : ولد عام ١٩٣٣ في تيرانا ومن آثاره : الصدى فقط عام ١٩٦٣ ـ درجات الخوف عام ١٩٧٢٠

٦ ـ باسم بوكشي : ولد عام ١٩٣٤ في جياكوفا ومنآثاره :انتظار٠

٧ ـ آدم غايثاني : ولد عام ١٩٣٥ في بودجيفو ومن آثاره : النور في القلب عام ١٩٦١ ـ مفتاح الصمت عام ١٩٦٤ ـ أنت غناء وأنت عصفور ناء عام ١٩٦٨ ـ الخاتم عام ١٩٧٤ ـ لا خوف ولا عصفور حب عام ١٩٧٣ ٠

٨ ـ محمد كرفيشي : ولد عام١٩٣٥ في بايا ومن آثاره : ألوان الحب عام ١٩٦٤ ـ صور منمنمة عا م١٩٦٦ ـ الامواج الجديدة عام ١٩٧٢ ـ الحلقات عام ١٩٧٣ ـ أهرام عام ١٩٧٦ ٠

٩ ـ فخر الدين غونكا : ولد عام ١٩٣٦ في ميتروفيسا ومن آثاره: وشوشات الفجر ـ اللعنات الهادئة ـ نشيد الحجر ـ رأس الرجاء الصالح ٠

١٠ـ كريم أويكاني : ولد عام ١٩٣٧ في بايا ومن آثاره : الآثار عام ١٩٦٣ ـ حكاية الموقد ـ البحر أو القصيدة القلقة عام ١٩٦٧ ـ قصيدة جريئة عام ١٩٧٢ ـ تعجب عام ١٩٧٥ ٠

١١ـ آظم شكريلي : ولد عام ١٩٣٨ في شكرل ومن آثاره : قطرات

الماء ـ الملائكة الجوالون ـ أعرف كلمة صخر ـ توراة الصمت ـ عيون حواء (حكايات) القافلة البيضاء (رواية) ٠

١٢ـ رحمان ديداي : ولد عام ١٩٣٩ في باندوه ومن آثاره : مع عين الأغنية ـ سامفونية الكلمة ـ الموشح المنفرد ـظماً ـ العصفور والبرج ٠

١٣ـ ميركو غاشي : ولد عام ١٩٣٩ في كراليفو ومن آثاره : في اعصار الماء عام ١٩٧٢ ـ الليالي البيضاء عام ١٩٧٥٠

١٤ـ علي بودريميا : ولد عام ١٩٤٢ في جياكوفا ومن آثاره : النداءات عام ١٩٦١ ـ منديل الوداع ـ الرافة عام ١٩٦٧ ـ سامبو عام ١٩٦٩ تورزو عام ١٩٧١ ـ الفعل عام ١٩٧٣ ـ الايمان عام١٩٧٦٠

١٥ـ موسى رمضاني : ولد عام ١٩٤٤ في جيلان ومن آثاره : خطايا آدم ١٩٦٧ ـ شكايات (تأوهات) ١٩٧٠ ـ ريئات الفن لا تنام عام ١٩٧٧ ـ نيروزيس عام ١٩٧٣ ٠

١٦ـ ابراهيم هادريمو : ولد عام ١٩٤٥ في زيجر ومن آثاره : ليالي كرداك عام ١٩٦٩ ـ شيء يمر ١٩٧٢ ـ مسافة ١٩٧٧ ـ وكتب أيضا للاطفال:الصيف ينظر الى الشاطىء ـ النهر يجري ـ ارماند٠

١٧ـ باكـير موصـلي : ولد عام ١٩٤٥ في جيلان ومن آثاره : قـوافـ
قلقـة ١٩٦٤ ـ زهور الـدم ١٩٦٦ ـ قصائـد
متوّجة ١٩٦٧ ـ جمال كريه ١٩٦٨ ـ السمسم
١٩٧٢ ـ حكمـة ١٩٧٦ ·

١٨ـ أكـرم باشـا : ولد في دبرا عام ١٩٤٩ ومن آثاره : مذكرات معلم
١٩٧١ ـ توقفات النبلاء ١٩٧٢ ـ النجوم ١٩٧٧
ـ بوليب ـ بتيكـون ١٩٧٤ ـ نزهـة خـلال
الغيـوم ١٩٧١ ·

١٩ ـ نشـات حليمـي : ولد في دومنيكا ١٩٤٩ ـ ومن آثاره:استعراض
العطش ١٩٧٠ ـ قريـب من البعـد ١٩٧١ ـ
الـدفء ١٩٧٤ ·

٢٠ـ صـبري حميـدي : ولد عام ١٩٥٠ في دومنيه ومن آثاره:الانسان
يموت شاباً عام ١٩٧٢ ـ صفحات ونهايـة
١٩٧٣ ـ سكين النسيان ١٩٧٥ ـ مختلفة ١٩٧٤
ـ نص موضوع بلهجـة مسـرحية ١٩٧٨ ـ
(تجربة للنقد الأدبي) مائة عام من الوحدة
(العزلة) رواية ١٩٧٦ ·

□ □ □

نفحات من الشعر النسوي الألباني في كوسوفا

● ترجمة : عبد اللطيف الأرناؤوط

استمدت الحركة الأدبية الألبانية في Kosova من اقليم كوسوفا يوغسلافيا قوة دفع متكافئة ، سايرت الموجة الكبرى ، موجة الثقافة الحديثة فيها حرب التحرير ، لتبرز بوجهها المتميز كواحدة من الثقافات الأوربية الأخرى ذات الاصالة وذات العراقة معاً .

وقد نقل الينا تاريخ النهضة الادبية في كوسوفا اسماء شاعرات تلمسن ملامح الطريق الى الحياة المعاصرة ، واستشرفن الحياة الجديدة للمجتمع اليوغسلافي ، فعبّرن عن تطلعاتهن وأحلامهن للمستقبل ، فكان عطاؤهن الشعري غنياً بالمشاعر الانسانية ، متميزاً برؤية واعية لمستقبل الانسان الحديث في المجتمع الأوربي الحديث ..

وهذه نفحات من مشاعرهن .. ونماذج من ألحان قلوبهن ، وهي مشاعر امتزجت فيها نعومة الشعر النسوي بقوة الايمان والثورة .

وهذه القصائد المختارة تشرح ذاتها وهي كفيلة بأن تعطي فكرة كافية

عن أبرز مضامين الشعر النسوي المعـاصر في أقليم كوسوفا ، وخصائصـه الفنيـة ...

١ ـ ادي ـ شكريوـهوتي Edi .. Shukriu .. Hoti

من مواليد عام ١٩٥٠ في مدينة بريزرن Prezeren

أهتمت بكتابة الشعر أثناء دراستها الثانوية .. وأصدرت ديواناً ضم باقة من قصائدها بعنوان :

ـ هذه الليلة .. يحتفل قلبي صدر عام ١٩٧٢ .

فيأعماق الشاعرة دنيا بعيدة .. ترفرف فيها الروح بوحي القلب .. وتعبق فيها الرياض بمطره .. ففي قصائدها سحر لهفة الأمل ..

١ ـ امرأة من كوسوفا

آه لوكنت عصفوراً
أطير الى حيث تتخطر العروس
أتنقل بين الأغصـان الوارفة .
لألمح من تعثر بها الحظ
في غياهب البيت .

□ □ □

آه .. لو كنت صخرة
فيرتكز عليّ الجـدار
وأصبح دعامة للبيت
كي أحفظك أيتها المسكينة
من ثورة العواصف .
ولهيب الشمس .

□ □ □

آه .. لو كنت حديقــة
في ساحة دمّرهــا الألــم .
لأنشر ظلالي حــولك
أغمرك بعطري ..
وأغنيك بثماري
ولأصبح أيتهـا الحزينة
مقبرة لمتاعبك .

□ □ □

أفيقي ..
ثوري ..
لم يكتب عليك التخلف والحرمان
ثوري ثورة الأيام العاصفة

حطمي القيــود
أسمعي العالم صوتك الرهيب •
أنفضي عنك غبار التخلف والظلام •

□ □ □

وان مت دون ذلــك
فستبعثين في مكان نضالك
ستعود اليك الحياة
من جديد في يوم ثورتك
أغنية على شفاه رفيقاتك
اللواتي سرن على طريق كفاحك

□ □ □

٢ ـ الأم

ولدتني أمي
مــع الألــم
وخيــم الحــزن
يــوم مولــدي

□ □ □

ولــد الحزن معي
لأنــي أنثى

أنت ستلـدين
وتتعذبين بحراب من الألـم
وبين موجات الفرح
ستلدين •• وسيعم الفرح
وستكون ابنتك يا أماه
مغمورة في بحر الفرح

□ □ □

٢ ـ افروديتا اسكنديري ـ Aferdita Skenderi

في عـام ١٩٤٢ وفي ضـواحي مدينـة ميتروفيسـا Mitrovica ولدت الشاعرة •• بعدما أنهت دراستها ، عملت في التـدريس •• عالجت كتابة النثر ثم الشعر •• وما زالت تشق طريها الى أعماق الانسان •• وتنطلق في مسالك الأحلام •• لكن تعلقها بجمال الغابات •• وحبها لصفاء الطبيعة ، جعلها تعطي الكثير من أنداء أحلامها •

١ ـ تأمـلات في الغابـة

أتأمـل ••
أرى الرجال الأشداء
ذوي الجبـاة العريضـة
وقد شدّوا أحزمتهم

وحملوا حرابهـم

□ □ □

غدت كل شجرة بطلـة
وأصبح كل غصن سيفاً
وبندقيــة ..

□ □ □

في الغــابات ..
خلــدت خطــواتي
أتأمــل ..
أرى القبعات الملونــة
والرجــال .
الذين عصبوا جراحهم بلفافات حمر ..

□ □ □

بدت كل قبعة وكأنها وحدها
قمــة جبــل
وغــدت كل قمــة
راية خفاقــة .

□ □ □

تكللت الغابات بالرايات
اني أتأملهـا
فتثور دمائي كالبحـر

□ □ □

٢ ـ صوت المحراث

حيث ألسنة اللهب
في الأرض
في الغابـات
ثمـة حب كبير
في الحقـول
وفي المصانـع .. !!

□ □ □

حيث تنطلق الأنفاس
ويعلـو ضجيج المحركـات
وصدى المعاول

□ □ □

أين ذلك الحب الكبـير ؟
في الأرض

في الازهـار

في الانتـاج ؟؟

أين ذلك الحب الكبير ؟

هـو في كل القلوب

أين تلك الأنفاس العطرة ؟

في الأعمـاق

في الآفاق

أين تلك الأنفاس ؟

انها في كل مكان .

□ □ □

هنـاك .. !!

في أعماق الأرض

في أعماق الانسان

يكمن الحب الانساني الكبير

□ □ □

٢ ـ بجبرية دميري Gebrije Demiri

في مدينة فريزاي . وفي عام ١٩٥٧ ولدت الشاعرة وبعدما أنهت دراساتها الجامعية .. عملت بالتدريس في ثانويات مدينتها ..

تلمس في قصائدها البساطة والقلق النفسي ..

١ ـ النور الأبدي

أيها النجم
يا لمنظرك الرائع
بين نجوم السماء
ما أجملك وما أروعك .. !!
في كل فصل ربيع
يا عروساً .
توشحت بالغار
وارتدت ثوب العزة والفخار

□ □ □

تتلألأ أبداً منذ شبابك
تستلقي على جناح الحياة
فينتفي عن الليالي كل سأم

بسبب وجــودك ..

□ □ □

ها قد وهبتك مقلتي
وبها اليوم
تطعن كل ناظــر
ويغدو الربيع ضفائر من نــور
مسدلة على أكتاف آمالنــا
وفوق البسـمات والعيــون .

□ □ □

أنفاسك تداعب الورد القاني
وغدائرك تبقى أبداً
تشق أجواء أرواحنا .

□ □ □

ويتطايــر الشرر
على جباه الكلمــات
وأنت تبرق على عتبــة حياتنا
أيها النور الأبدي

□ □ □

٢ ـ لن يبدل النهر خريره

خيوط الأفكار الرفيعة الدقيقة
يجمعها العقل ويعقدها
لتكون ظلاً للنـور
والزمن يركض مسرعاً
وعلى جبهته تزداد الغضون
ومـن حـوله
تجتمـع البسمات
وتنسكب الـدموع
هو يهيء لهـا مكاناً
تحت سقف الذكرى
حيث لا شمس
ولا نـور ..

□ □ □

ثم تتبدد الأحـلام
دون أن تتحقق
أحلامنـا الكثيرة
التي تحكي عن طيور السماء المهاجرة
والشمس الغـاربة .

□ □ □

كم من الأحلام بنينـا
فوق صدر الحيـاة
فلم تزدها ثقـلاً أو حمولـة
كم من الأصداء غادرتنا
دون أن تدرك هويتها
الحروف مبتورة الرجلين
والعيون يهزأ بهـا
الفجر الناصع البياض

□ □ □

العقل يغزل خيوط الأفكار
والغيوم ترفـع أشرعة السفن
وتظل آمالنا تدوّم
فوق الرؤوس

□ □ □

ومسيرة الزمــن
تحشد كل شيء في الوجود
والنهر يجري
ولا يبدل خريره

□ □ □

٤ ـ ساديثا أمر للاهــو Sadete Emërllahu

عشقت الشاعر / ساديثا / أنسام الحرية منذ طفولتها وعطرت مشاعرها بأريج الأرياف •• بعدما عاشت مع آلام المرأة الريفية •• وأحزانها في بيئـة التخلف والاهمال فقد ترعرعت في منطقـة فقيرة •• وارتـسمت في مخيلتهـا صور الحياة الريفية القاسية •• فالتقطتهـا لتعبر عنهـا بطريقتها الخاصـة المألوفة ••

١ ـ امنيتي

أمنيتي •• ! !
أن أحبو ثانية كالأطفال
في يوم بهيج مشرق
والثلــج يكلل قمم الغابات
أن أرضع ثانية من الثدي
لبـن الكبرياء
هذا ما أتمناه

□ □ □

أمنيتي ••
أن أقبل جباة الصخـور
وأغني لها أغنية ريفيـة

ومـــن خـــلال اللهب
سأكشف الغلالة عن وجه يوم جميل
لأحفظه في أعماق قلبي
لأجـدد فيه آمالي

□ □ □

أمنيتي • • ! !
أغنية ، أحطم بها الصخر
وأمسح عن جبين الحياة
لهيبها ••
وأغني • • ! !
لنســاء الأمس
اللواتي يحتجن الى الراحـة
قد نسير عند بزوغ الفجر
باتجاه قرص الشمس
لتحقيق أملي الوحيـــد

□ □ □

٢ ــ الى المرأة الريفية

أمضينا الأيام بين حقول الأرياف
ولم نذق طعم الراحة أبـداً

في عينيك أرتسم الحظ التعيس
ولم أسمع منـــك
أية شكوى أو ظلامـــه

□ □ □

أزداد فرحنا في البيادر
وتابعنا مسيرتنا
في درب لانهاية لـــه ..
هل ستلمح رفيقتي القرويـــة
سنا يومهـــا المشرق
قلت ذلك .. في وقت متأخر من الليل

□ □ □

هدهدنا معـــاً
سرير أحلام ريفنـــا
وقرأنا معاً كتب الحريـــة
أبتعدت عنك أيتها الرفيقة القروية
بقيتِ وحـــدك
شدّكِ الحظ التعيس اليه
وطفقت تتمذبين
بعدما ثقب جوربك

□ □ □

٥ ـ شهرزاد شكريلي Shehrezad Shkreli

تأثرت الشاعرة / شهرزاد / بالتطور الحديث للشعر المعاصر واعتمدت على أصالتها الأدبية في بلورة فكرها ، وتجسيد أحلامها في قالب شعري •

نشرت ديواناً بعنوان / ألف زهرة وزهرة / ضمت فيه قصائدها الأولى ••

١ ـ الراعي

في وسط الحقول
يحيا بالعطر ليحرس الزمن
الباقة عنده
غابة كثيفة •

□ □ □

أصابعه كالضياء
تداعب المزمار
وحين يتناول الغداء
يجلس على الأرض باسترخاء

□ □ □

باقـة الورد عنده
غابة كثيفـة
يحيـا بالعطـر
ويحرس الزمـن

□ □ □

أجـل .. !!
باقة الورد عنـده
أرض غاليـة
هي الـوطن ..

□ □ □

٢ ـ لا تبحث عني

لا .. لا تبحث بعد اليوم
عن خضرة عيني

□ □ □

لا تبحث ..
عن لهيب قلبي .

□ □ □

لا •• لا تبحث طويلاً
عن حطامي المحترق

□ □ □

لا •• لا تبحث كثيراً
فلن تجد الا السراب

□ □ □

٦ ـ عائشة غاشي Ajshe Gashi

ولدت في عام ١٩٥٠ في قرية قريبة من مدينة [بيا Peja] أنهت دراستها العالية في قسم الأدب والفلسفة ••

وتفتحت براعم مشاعرها الأدبية أثناء دراستها الثانوية •• فكتبت شعراً عاطفياً صبغته بريشة الطفولة الحالمة •• ونشرت بعض قصائدها في المجلات الأدبية المختلفة •

١ ـ أنت

حين منحتني الحب
سلبت من القرنفل ألوانه

□ □ □

حين منحتني النظرة الأولى
سلبت من الشمس أشعتها •

□ □ □

حين غنيت لي الأغنية الاولى
أخذت من البلبل صوتـه •

□ □ □

وحين منحتني القبلة الأولى
سرقت من العسل حلاوتـه •

□ □ □

وحين ضممتني بين ذراعيك
أعطيتني كل أمل للحياة

□ □ □

٢ ـ ذكرى

تعد أمي المسكينة
المائـدة ••
وتقدم الخبز للطاعمين

□ □ □

صندلها هدية أو نفحـة
وفـوق كتفهـا العاريـة
قطعة نسيج

□ □ □

هي تردد أبداً
يا رب •• يا رب الجميع
هل يظل الفقر رفيقنا
الى الأبـد ••

□ □ □

٧ ـ فلورا بروفينـا Flora Brovina

تعتبر الشاعرة / فلـورا / من اللـواتي استطعن أن يجتزن الآفـاق البهيجة •• وتمكنت أن تنتقل الى مرحلة الايمان بقضية الانسـانية •• وأعتبرها النقاد الشاعرة التي تلون الكلمات بريشة آمالها بكل صفاء واخلاص ••

١ ـ رفاق ابي

كنتم •• بعدد سنوات عمري اليوم
وبعدد مالي من أصدقاء
يا رفاق أبي

لكم في قلبي حب أبي
كنتم مثّلنا اليـوم
حفظنا أسماءكم الخالدة
التي غدت عناوين هداية بارزة
تخلدها المدارس
والشوارع
والمعامـل

□ □ □

كلما مرت في شوارع
أراكم ..
أنتصب أمامكم بكل كبرياء
لأني أعرفكـم
أناديكـم ..
لأني أعتزّ بحبكم
وأنتم لا تعلمون

□ □ □

بدت مآثركم نبراساً لنا
وبقيت أسماؤكم مفخرة لنـا
محفورة على صفحات قلوبنا

عناوين هداية بارزة
تخلدها المــدارس
والشوارع
والمعامــل

□ □ □

أمضيتم فصول الربيع
وشعرت بعد مضيكم
أنكم ستنادونني بالرفيقة
ألا تدرون
أنني ابنتكــم
لأنكم رفاق أبي

□ □ □

٢ ـ الى رفيقتي «مستي»

شرح المدرس على المجهر
حرب الجراثيم المنتشــرة
أتذكرين أن ذلك يا «مستي»
كان يوم لقائنا

□ □ □

كنت في شوق
لأحدثك عن مدينتي الصغيرة
ولمعت عينــاك
عندما حدثتني عن أفريقيا السوداء

□ □ □

رفيقتي « مستي »
عندما وصفت لك
جمال الفتيات أثناء غنائهن
وصفت لي ..
الاطفال الجياع الذين يموتون
عندما ذكرت لك أمهاتنا
ذكرت لي .. تجاعيد الهم والألـم
البارزة في جبين الأمهات الافريقيات
ولما أخبرتك : انني أحب الربيع والأزهار
أبتسمت قائلة :
هنيئاً لك بأمانيك .. وحبك
أما أنا ..فأريد أن أتنسم الحرية

□ □ □

رفيقتي « مستي »
تابع المدرس شرحه
عن أوبئة الجراثيـــم
أتذكرين أنذلك
كان يوم لقائنا الأول

□ □ □

ذكرتك .. وفكرت فيــك
أأسميك «مستي» أم «أفريقيا»
أتكافحين ضد الجراثيم القاتلة
أتحافظين على آمالك
أتحاربين الأمراض الفاتكة
يا أفريقيا ..
أأنت ما زلت شجاعة
هل تخلصت من الجوع والجفاف
أم مازلت تحتاجين الى قطعة خبز يابسة

□ □ □

رفيقتي «مستي»
أذكر جيــداً
رداءك الأبيض الناصع

وأنت تتخطرين بلونك الزنجي
أنت أفريقيا
وأفريقيا كلها أنت

□ □ □

٨ ــ فوزية صاديقــو Fauzie Sadiku

تحاول هذه الشاعرة كشف مكامن عواطفها المضطربة كي تنطلق بعدها الى واحة الابداع •• ولتنهج طريقاً مزدهراً بالآمال •• ومن خلال تساؤلاتها المتعددة تريد أن تقول شيئاً لم يسبقه اليها أي انسان •• طموحها لبعث قناديل الحياة في الزمن الراحل •

١ ــ هل اقدر على الكتابة

هــل أقــدر عــلى الكتابــة
بعــد هــذا الصمــت الطويل
أنــا ابنتك يا أمــاه
يــا مــن أنجبت قــلبى وقلبــه
نحــن الأخويــن
وهــا ان فــؤاده ينأى عني اليــوم
وظل قلبي الوحيــد نهبــا للريــاح

□ □ □

هـل لـي أن أكتب بعد الآن
في ذكـرى كـل راحـل
في مواجهـة كل حـدث
يـلم بعـالمنـا
وأنا أعلـم
أن الدموع لا تبدّل شيئاً

□ □ □

هل لي أن أكتب
عن كل صراع خضتـه
أنا المرأة
التي ترعرعت كالمحاربـين
فادّخرت الحب
للسلاح والعتـاد
من أجل نيل الحريـة

□ □ □

هل لي أن أكتب .. ؟؟
كـل ما غنيت ..
لكـل ربيـع
لكـل ولادة

لكـــل طفل يكبر

في كل يوم يأتي

لكل شهيد راحــل

لكـــل حبيب نودعــه .

□ □ □

لا بد من الكتابــة

ومن الغنــاء بصوت عال

ما دامت لي عزيمة الرجال

أنا المرأة

لا بد ان تردّنا الحياة اليها ..

رغم المآسي والنكبـات

بدافع حبهـا الكبـير

فنحن الأوتار الخالدة

في مسيرة التاريـخ

في موكب الثورة

في ولادة الموت

نغني لكل محنــة .

□ □ □

أنا المرأة
مسيرتي لم تكن طويلــة
فلِمَ تدفنون الشمس ؟؟
أو تحجبون الوجوه ؟؟
أو تطلبــون صمت الاغنية ؟؟

□ □ □

لا بد من الكتابة
عن مسيرة حــواء المستمرة
عن كل ما ينسو تحت الشماع
لارى العالم بعيني
فليس ثمــة أجمــل
من أن تثرثر بما تفكــر بــه
من أن تجعل قلبــك مشرّعاً
لا يرتــج بابــه أبــداً

□ □ □

٩ ـ فهيمـة سليمي Fehime Selimi

تملك الشاعرة / فهيمه / الاصالة الفنية في التعبير عن رحلتها النفسية المستمرة في طريق الحياة ••وتتميز قصائدها بالحس الـذاتي المشرق ••• والحداثـة الابداعيـة •

١ ـ ازهار القرنفل المجتثة

كل شيء يستقيظ باكراً
حتى المطـر ••
وتتزحلق الغيـوم على الاشجـار
وفي العيون يموت جمال الخضرة
ولا أعلم كم من المرات
طار فيها اللقلق ولما يعد
أحرقت الأعشاب عشه
وأقبل الى وليمـة العشـاء
متطفلاً من غير دعوة
أزهار القرنفل المجتثة
والألم ينمـو في الالم
فواحسرتاه •• !!

كيف تقرع طبول الاعراس
ولا وجود للعروس

□ □ □

البراعم تزدهر
والقرنفل ينمــو
مجتث الرؤوس
عظمي وعظمــك
يتحدان في اللهو
فمن ذا الذي أغلق باب البيت
ونصل بيني وبينك

□ □ □

البراعم تزدهر
والقرنفل ينمــو
ويكبر ..
مجتث الرؤوس

□ □ □

فمــن بدأ منكما
أنت أم المساء .. ؟

حتى كانت نهايتي ولم أكـن
القرنفل يحترق دون عظـام

□ □ □

وعلى الجدران يتسلق اللبلاب
وأنا المتسلقة بلا رأس
وجوادي رمى حذواته
في الحقل
فكانت النهاية ..
دون أن أكون ..

□ □ □

٢ ـ حروف المطر

الشوق محروق على البراعم
فكيف أعمـل ..
قل لي بربك : كيف أعمل .. ؟؟

□ □ □

غاب عن القرنفـل لونه
ونسي العصفور المسافات
ونسي اليوم اسمـه

وأنا أغزل خيوط الحظ
باحثاً عن هامتي في الوهـــاد
صرت ذكرى بلا هوية
ولا اسم ..

□ □ □

ودفنت الألم في الألم
في خطواتي
فوق الطريق المتطاولة
وحروف المطر تنهمر
ونحن نتابع المسيرة
أنا وأنت وطائر السعد

□ □ □

محترق كل ما حولي
حتى الوحدة
ففي أي مكـــان
يترقب صوتك
والألـــم
في أي حب
تثور أمواجـــه

□ □ □

١٠ ـ ميراديا راميجي Miradija Ramigl

تستمد الشاعرة / ميراديا / وحيها من ينبوع غزير لا يضب •• فهي تملك الحدس للانطلاق في ربوع أحلامها •• لتتجدد في كل لحظة آمالها المغروسة في النجوم المتلألئة •• وتبحث عن ذلك الانسان الذي يثير فيها حرارة العاطفة•• ودفء الحياة • ففي قصائدها رجع صدى لألحان قلبها الظامىء الى الحب •••والوفاء ••

١ ـ حذار

حذرتك من أن تحصد
سنابل قمحي
قبل أن تنضجها السنون
فحصاد السنابل الخضر
يبعث الألم في الاعماق

□ □ □

حذرتك من أن تقصف نموي
فمن الربيع المزدهي
سرقت عمري المتنامي

□ □ □

حذرتك من أن تمسح النجوم
من السماء
بمكنسة النسيان
هلاّ عددتها بأصابعك
حتى لا تطرد أحلامي المطبقة
وذكرياتي المعقدة
هذا ما حذرتك منه

□ □ □

٢ ـ ألوان الانتظار

أيها الفارس الأزرق
في الذرا
لماذا تلاحق وجهي
بعد ألف انتظار وانتظار
أنا كامنة في الألوان
في حلم النهود البارزة
فأنى لك عيناي الحالمتان
وأنت موثق اليدين
أنى لك أن تخلق ألواني
وتكوّن لوحتي الصامتة

دونك خضرة الصيف
ورحلة الطيور الناعسة
أبحث عن صورتي في كل مكان
بعد ألف انتظار وانتظار
لن تصل الى حكايتي الصامتة
الى مسيرتي الطويلة الشاقة
فلِمَ تلاحق رسمي
وأنا كامنة في الألوان

□ □ □

١١ ـ رسمية كروزيو Resmije Kryezlu

الشاعرة / رسمية كروزيو / حطمت الأوزان الشعرية ٠ وانصرفت الى الى الرؤية الذائبة بأسلوب رمزي ، للتعبير التلقائي الطبيعي عن أحاسيسها الأنثوية بكل جرأة وصراحة ٠٠ وهي تسلط الضوء على الكلمة العفوية التي تتحدى جمود اللغة والوزن ٠

□ □ □

١ ـ رسالة لما تكتب ٠٠ !!

ها قد تلوثـم

رسالة الحب الرقيقة
تلوتموها بصـدق
لكن رسالة واحـدة
لم تتمكنوا من تلاوتها
هي الرسالة
التي لم تكتب بعـد
رسالة قصيرة
تتضمـن همس الأحلام
وقطرات الدموع المذروفـة
والكلمات العالقة بالحلق
عـار .. !!
أن تقول للقادم
حاملاً مصباحـه
في موهن من الليل
لا أحبك .. !!
فالفراش ناصع البياض
يستمـد دفئـه
من حرارة الدمع

□ □ □

في تلك الليلة
تمر الكلمات دون أن تتلفظ بهـا
لأنها آمالنا المسحوقة
تستتر تحت الجفـون
تجلس ..
في جوار الرغبات
مقيدة بألف قيـد

□ □ □

في تلك الليلة
تستقر الكلمات على الأهداب
وما أروع طعم القبـلات
اذ تختلط بالدمـوع
التي تجف
مع مرور الليل

□ □ □

سأكتب اليـك رسالة
من القرية الجبلية
بين الشعاب الضخمة
وأنسج لك بأغلى الخيوط

بواكير الزهر ..
مطرزة بالالـوان
نابعة من أعماقي الصافية
كالحب الذي لم تحدثني عنـه
سأبرزك الى السوق
في كل لـون
في كـل خط
في كـل حديث
تخالطـه الدموع
سأبرزك في السوق
جسداً نقياً
في رائحـة الأزهار

□ □ □

فما أجمـل أن أراك
تحمر خجـلاً
دون أن يمسكك أحـد
وما أروع أن أراك
لحنـاً رقيقـاً

حين تهب أوراق الشجر

سأبيع من أجلك كل ريـــح

فدىً لثوبك الغالي

لقميصك الشفاف

ما تقول عنـــه

هل هي غالية .. ؟؟

□ □ □

لأن الحب هـــو الذكرى

ذكرى الدمـــوع

تمتزج بالأماني العذاب

أريد أن أراك

كمـــا أنت

بقميصك الممزق

بقبعتك الصوفيـــة البيضـــاء

بأزهارها الملونة

وحين أخرج الى السوق

لأبيع ماعندي

تغلق الحوانيت أبوابها

مثلما أغلق بابي

ومن خلفه الذكريات

ودمـوع الحب

كلهـا لأجلك •

جولة مع الأدب

جون دوس باسوس

أفردت مجلة الادب الاميركي في عددها الاخير ملفا خاصا عن الروائي الاميركي جون دوس باسوس (John Dos Passos) وقد ولد الروائي في أحد الفنادق بشيكاغو عام ١٨٩٦ وكان الابن غير الشرعي (لجون راندولف دوس باسوس) الذي كان يشتغل بالمحاماة • وقد ساعدت بعض سمات بيئته العامة ، وهو في مطلع حياته على تشكيل شخصيته الفنية الروائية •

وتحدث الملف عن المؤثرات الخارجية في حياة الروائي ولكن الجزء الاكبر منه تناول أعماله وخاصة (قصة الجنود الثلاثة) و (قطار الشرق) و (خط العرض ٤٢) و « الولايات المتحدة الاميركية » وهذه الاخيرة هي ثلاثيته الشهيرة •

وثلاثية (الولايات المتحدة الاميركية) ، هي قبل كل شيء سفر من

الذكريات ، وهذه الذكريات تنصب جميعها على الولايات المتحدة خلال الثلث الاول من القرن العشرين ، وهي تتجمع وتسير في خطوط متوازية من التراجم الذاتية والتاريخ والسير والقصص الروائي • والشكل الفني المستخدم في تصويرها هو اسلوب التداعي الـذي تقوم عليـه الذاكرة ذاتها • والـذي عن طريقه تتكون الصور الذهنية في العقل ويمكن بعـد ذلك استعادتها ، وهدف هذا العمل الادبي مساوٍ لوظيفـة الذاكرة وهو أن يقيم في العقل صورا ذهنية ، وهذه الصور باتصالها وتداعيها مـع صور ذهنية أخرى مستمدة من التجربة مثل صور اللـذة والالـم تتطور الى موقف واتجاهات نحو أنواع معينة مـن التجربة أو تتحول الى قيم أو مقاييس نحكم اليوم بمقتضاها •

في ثلاثية (الولايات المتحدة الاميركية) وجد دوس باسوس لنفسه مكانا أمينا في تاريخ بلده في ذلك الوقت ، لكن اهتمامه بالتاريخ كـان يفوق اهتمامه بهذا التاريخ ، وهو كمؤرخ لم يكن بحاجة الى من يذكره أن الديموقراطية لم تكن في بلده سوى قناع خارجي للنظام السياسي •

كـان دوس باسوس كناقـد يهتم دائمـا وبصفة رئيسية بتأثير الظواهر على الفرد سواء كان رجلا أو امرأة • وقد ساعد هـذا الاهتمام في أن جعل منه كاتبا قصصيا كما كان هذا الاهتمام ، وليس تعليمه أو احترافه الكتابـة القصصية هـو الذي جعلـه يركّز كل تواريخه علـى الشخصيات ، وعلـى الصفات المميزة للشخصية • وعلـى ذلك ينصب

اهتمامه في (الثلاثية) على الستة وثلاثين شخصية الحقيقية ، وهذه الشخصيات الروائية تصور تفكك الاسرة أكثر مما تصور أي شيء آخر ، تلك الاسرة التي كانت يوما ما احدى الدعائم الاساسية للمجتمع الاميركي • ورغم أن غالبية الشخصيات الروائية كانت تنتمي الى أسر مستقرة متماسكة الى حدٍ ما ، فقد عجزوا عن أن يقيموا لأنفسهم أسراً مماثلة ، والقصصي الروائي في (الثلاثية) مليء بالمتناقضات المؤسفة، والشذوذ الجنسي ، والصدقات المريبة العابرة ، والطلاق ، وعمليات الاجهاض • وفي النهاية يلخص (بن كومبتون) أحد الابطال ، مطالب العصر في حديثه الى (ماري فرنش) وهي واحدة أيضا من الشخصيات الهامة التي يبدي المؤلف نحوها كثيرا من العطف ، وهي التي جعلت منها غريزة الامومة عاملة مخلصة من أجل المظلومين • يقول بن : « اتدرين ؟ لو اننا لم نكن اغبياء لكنا أنجبنا ذلك الطفل في ذلك الوقت ولأحب كل منا الآخر رغم ذلك » •

والقارىء يشارك دوس باسوس رأيه في أن الرأسمالية الطليقة تدمّر المجتمع وتدمر الاسرة وتدمر الانسان • ويشاركه حبه لكل من الشخصيات الروائية الرئيسية اذ هو يرى كلاً منهم في طفولته • ثم يتحول هذا الشعور بالحب الى شعور بالاحتقار أو الرثاء عندما يراهم يتحولون الى أجزاء أو وقود للآلات الرأسمالية • وربما شعر بالغضب تجاه نزعتهم الفردية التي تؤدي بهم الى الهلاك أو الموت كما في حالة (جو وليامز) و (دوتر) اللذين قتلا في اضطرابات ما بعد الحرب في

فرنسا ، أو تؤدي بهم الى العزلة أو الافلاس كما في حالة (بن كومبتون) .

ان (الثلاثية) مأساة عظيمة من التاريخ ، بطلها الولايات المتحدة ذاتها في فترة الثلث الاول من القرن العشرين وهي ادانة للرأسمالية القاتلة للانسان والمزيفة للشعار الديموقراطي الذي ترفعه ، ولكنها عندما تتهدد مصالحها لا تتورع عن أن تقتل (ساكو فانزيتي) وهو بريء .

م ١٠ خ

□ □ □

أغنية البصل

للشاعر الإسباني
ميغيل أرنانديث

ترجمة : مصباح عبد السلام

١ ــ تقديم :

كان الشاعر : ميغيل ارناديث Miguel Hernandez الذي ولد في ٣١ اكتوبر ١٩١٠ بأوريهويلا Orihela ومات في سجن اليكانطي Alicante في الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم ٢٨ مارس ١٩٤٢ ... يعيش احلك ايامه في حالة بين المرارة والالم داخل سجن طوريخوس Torrijos بمدريد حيث يصعب تخيل الحياة او نقلها في السنوات الاولى من انتهاء الحرب الاهلية الاسبانية (١٨-٧-١٩٣٦ ــ ١-٤-١٩٣٩) بين جدران أورقت عليها العفونة وأزهرت بهارائحة الرطوبة وأصبح منظرها يثير القرف ويملك من ورائها انفاس اليأس الجنائزي ورائحة الموت .

في هذا الجو المشحون القاتم ذو الاحلام المجهضة والاشواق اليابسة يتسلم الشاعر البائس الذي فقد كل امل في رؤية الشمس .... رسالة من زوجته خوسيفينا Josefina تقول فيها ان وحيده وفلذة كبده لايجد ما يأكل وقد اصبح البصل والخبز اليابس كل زاده ..

وفي يوم ١٢ سبتمبر ١٩٣٩ وقد بلغت مأساة الشاعر ذروتها ـ يرد على زوجته برسالة تحفل بآلام الجراح التي عصفت بكل ماكان يشعر به نحو الحياة والحب من حيوية دفاقة وآمال •••• رسالة تجسد لحظات الكدر ولحظات الصفاء معا •

ان هذه الرسالة تعتبر مفتاحا تسعد كل من يريد دراسة ادبه على فهم شعره خلال هذه المرحلة حيث تكشف لنا عن نضج فكره ووعيه السياسي وتبلور رؤاه الشعرية وبالتالي تكشف عن العمق الانساني والجو الفريد الخافق بالحنين ـ بالحب ـ بأحاسيس الامل ••• وبالكوابيس المتراصة بألوان اليأس الذي ولدت فيه الكثير من قصائده داخل السجن المطبوعة بالمرارة والعذاب ••• احيانا باحلام الخلاص المشعة •• ومن القصائد التي كتبها داخل السجن : اغنية البصل

ولما كانت تلك الرسالة تتعرض من قريب جداً الى فكرة هذه القصيدة فاني ارتأيت ان اقتطف منها هاتين الفقرتين القصيرتين تعميما للفائدة :

« هذه الايام قضيتها متأملا في حالتك ••• كل يوم يزداد شقائي ويعظم يأسي ••• رائحة البصل الذي تأكلينه وصلتني الى هنا ••• وطفلي احسه ساخطا من رضع واستخراج عصارة البصل عوض الحليب •

« لقد قضيت ساعات طويلة افكر في هذا الطفل وفي ذلك المستقبل الذي ينتظره ••• انت باتباهك وحرصك وانا بجهدي وسعيي ••• اني أريد مستقبلا مشرقا مستقبلا رائعا من اجل طفلنا » •

والان .....

كيف يرى الشاعر ميغيل ارنانديث الشاعر السجين مستقبل ابنه من خلف القضبان في عتمة زنزانته بعد ان لحقته لعنة الحديد والرطوبة والظلمة وقد اصبحت اسبانيا بلاده تحت رحمة البنادق الكتائبية وكرابيج القمع .

لنقرأ اغنية البصل :

٢ ـ القصيدة :

البصل صقيع
مغلق وضعيف
صقيع أيامك
ولياليّ
جوع وبصل
جليد اسود وصقيع
كبير ومستدير
في مهد الجوع
طفلي يوجد
مع دم البصل
يرضعه
لكن دمك

مغطى بسكر الصقيع
بصل وجوع
امرأة سمراء
في القمر ثابتة
فوق المهد
خيطا خيطا تذوب
اضحك يا طفلي
ستبلغ القمر
عندما يكون ضروريا
اضحك
قبرة بيتي كثيراً
ضحكتك في العيون

للعالم نور
اضحك كثيراً
حتى اذا روحي سمعتك
رفرفت في الفضاء

ضحكتك حراً تجعلني
أجنحة تمنحني
عن الوحدة تبعدني
من السجن تقتلعني
الثغر الذي يطير

القلب الذي في شفتيك
يومض
ضحكتك

هي السيف الاكثر انتصاراً
يا منتصراً على الازهار
على القبرات

يا منافس الشمس
ومستقبل حبي
وعظامي

اللحم المرفرف
الجفن المباغت
الحياة الملونة

كما لم تعش ابداً
كم طائر
يرفرف

من جسمك يرتمع
استيقظتُ من طفولتي
ابداً لاتستيقظ

احملُ الثغر حزيناً
دائماً اضحك
دائماً في المهد

مدافعاً عن الضحكة

ريشة / ريشة

كن ذا تحليق عال

متعدد

فلحمك

هو السماء المولودة حديثاً

لو انني استطعت

الى بداية طريقك

ارتفعت

في شهرك الثامن

بخمس زهرات تضحك

بخمس فراشات

جد صغيرات

بخمس اسنان

مثل خمس يا سمينات

يافعات

حدود القبلات

تصير غداً

عندما في اسنانك

تحس بسلاح

تحس بنار

عبر اسنانك تجري

عن المركز باحثة

بين قمري الصدر

طر يا طفلي

هو من البصل حزين

أنت راض ..

لاتنهر

لا تعرف مايحدث

ولا ما يجري

ملاحظـــة :

تعتبـــر هذه القصيدة من اشعار ميغيل ارنانديث التي كتبها في السجن وقد نشرت بعد موته الى جانب اخواتها •• اعتمدت في ترجمتها على كتـــاب « الرجل وشعره » EL Hombre Y SU Poesia الذي نشره خوان كانو باييستا Juan Cano Ballesta والصادر في سنة ١٩٧٤ عن دار كاتدرا Catedra مدريد • الطبعة الاولى•

* * *